

فلورا كيد

أسوار وأسرار

روايات رومانسية عالمية
عبير

أسوار وأسرار

قال لها

لا أريد ان ترحلي، وافكر جدياً

بأن اسجنك هنا في الحصن، سأجلب لك الطعام

والشراب وبعدها اعانقك. وقبل ان ينتهي الليل تعترفين

بأنك تحبين ذلك ..

سألته وهي لاتصدق ما تسمع :

وهل هناك شروط ؟

شرط واحد فقط، ان تتزوجيني، هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل

يمكنك أن تهبطي من برجك العالي وتتنازلي وتتزوجيني ؟أنا ملاك

مفلس

اسم عائلته ملطخ بالسواد هل تقبلينني ام اسجنك ؟

لا أصدق لماذا يحصل لي ذلك .هل هذا صحيح ؟

انت صعبة الإقناع لكني سأجرب ، انت أول زهرة

التقطها

وارغب أن تبقى معي.

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية

١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٢٧٨٦٤١٨١

١ - الفارس الأسود

كان الباص يسير ببطء على جسر ضيق يمر فوق نهر. نظرت ساندي فيليبس من النافذة قربها وقرأت كلمة اسكوتلندا على اشارة موجودة الى جانب الطريق.

وصلت ساندي الى هذا القسم من بريطانيا الذي لم تزره من قبل، شعور مثير انتابها. اسكوتلندا بلاد جبلية مليئة بالمستنقعات. فيها اودية صغيرة، او قلاع وحصون قديمة اثرية، ومزارع صغيرة مسورة وحقول واسعة.

سار فوق هذه الطرقات، من قديم الزمان مئات من جنود الرومان ابتلعتها القفار الواسعة هنا، وضاعت في البراري وضاعت اثارها. لم تستغرب ساندي ضياع فرقة من الجنود هنا بعد ان جالت ببصرها من نافذة الباص في الحقول الواسعة التي كانت الطريق تخترقها. المطر ينهمر والضباب يغمر الحقول الخضراء الرمادية المشبعة بالمطر. خلف الحقول تطل تلال بعيدة هي متعة للنظر. ربما ستبتلعها القفار كما حصل لفرقة الجنود الرومانية. لم لا؟ سرحت ساندي بخيالها عبر عصور التاريخ، هي تحلم في وضح النهار، حتماً ستبتلعها السهول الواسعة اذا حاولت رؤية ما خلفها في البعيد البعيد. انحرف الباص الى الشمال، قرأت لوحة جانبية على الطريق كتب عليها «غرتنا غرين». تذكرت هذه القرية الصغيرة وما تحمله من احلام رومانطيقية. كان العديد من الشباب والشابات يقصدونها ليتزوجوا خطيفة.

هذه هي الرحلة الأولى لساندي الى اسكوتلندا. رحلة طويلة قطعتها

من لندن الى كارليزل في سيارة عمومية كبيرة مخصصة للمسافات الطويلة. سريعة الحركة ولكنها مريحة. توقفت عدة مرات على الطريق. رحلتها عبر اسكوتلندا من مدينة غالوي كانت معتدلة السرعة والطريق معظمها مطبات.

لم تشعر ساندي بأي عناء. منذ الصباح وهي على الطريق تجلس مستقيمة، اكتافها مرتفعة وعيناها مفتوحتان، متيقظة ومتحمسة لكل ما يدور حولها في الداخل والخارج.

ساندي فتاة طويلة نحيلة، ساقاها طويلتان وهي ترتدي بنطلوناً من الجينز، ازرق باهت اللون مع قميص قطني، فوقه سترة مانعة للمطر شعرها الطويل المنسدل، مفروق في الوسط يتدلى فوق كتفيها بلون الرمال الصفراء. تخرجت ساندي منذ شهرين من الجامعة، تحمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ. بعد ان امضت ثلاث سنوات في الدراسة والتعمق توجتها بالنجاح، عملت منذ تخرجها في عدة وظائف مختلفة لتشغل نفسها بها في مدينتها، حيث تعيش في كنف والديها، كانت ترغب في جمع بعض المال الضروري لمتابعة تحصيلها الجامعي لنيل شهادة ارفع في تخصصها.

تلقت رسالة من ابنة خالها مرتا من دون انتظار. قرأتها بتمعن. كانت مرتا تتمنى عليها ان تقبل دعوتها لتمضية فصل الصيف عندها. مرتا ابنة خالها شابة متهورة، تحب الحياة واللهو. ترملت فجأة بعد موت زوجها كروفورد كالدويل بحادث سيارة مفجع، في سباق للسيارات، وترك لها ولداً في عامه الثاني. تقول مرتا في رسالتها انها تكتب اليها من بيت جدود زوجها في اسكوتلندا.

فتحت ساندي حقيبة يدها الجلدية واخرجت منها الرسالة واعادت قراءتها:

«عزيزتي ساندي،

كما ترين من العنوان الموجود على الرسالة، انني وصلت سالمة الى «دانكريغان»، كانت صدمة لي عند وصولي اذ اكتشفت ان والد زوجي كان قد توفي منذ سنتين. ولم نكن انا وزوجي كروفورد نعرف هذه الحقيقة. من المؤكد ان اتصالات ومحاولات عديدة لاعلام زوجي بالخبر،

في حينه، باءت بالفشل. كانت جميع هذه الرسائل تعاد لصاحبها لأن المرسل اليه غير موجود ولا عنوان جديد لديه. كان هذا ما دفعناه انا وزوجي ثمناً لتكرار انتقالنا وعدم استقرارنا في مكان ما.

يملك المزرعة الآن ليماند الشقيق التوأم لزوجي. هي قلعة قديمة وقربها منزل جديد نسكنه، يسمونه كذلك مع انه ليس جديداً لأنه بني منذ عشرين سنة. ستحبين العيش هنا في هذا المكان التاريخي الذي يرتبط بالماضي.

دعاني ليماند لأعيش هنا مع ابني ديرميد وقد قبلت دعوته. وصلت منذ ستة اسابيع. وقررت البقاء في دانكريغان من اجل ابني كي يتربى في منزل جدوده. هنا تربى والده كروفورد وترعرع وسأتيح لابني فرصة التمتع بالامتيازات ذاتها التي كانت لوالده من قبله ولذلك سابقى هنا.

عزيزتي ساندي، احتاج لمساندتك المعنوية، مساندة لا تأتي الا من فرد من افراد العائلة الواحدة، وانت اقرب الي من شقيقتي في هذه الحياة. اقترح عليك، اذا لم تكوني مرتبطة بعمل ما لهذا الصيف، ان تحضري الى هنا لتساعديني في رعاية ابني ديرميد مقابل سكنك ومعيشتك، خلال عطلة الصيف. انه شيطان صغير وانا اجد صعوبة في ملاحقته لوحدي. اتذكر دائماً رعايتك له يوم نزلت عندكم في انكلترا، عند عمتي جين وعمي توم، والديك، بعد وفاة زوجي. انا متأكدة ان وجودك معنا في دانكريغان سيساعدني وابني على الاستقرار.

يوم وصلت ومعي ابني، استقبلني كل من في المنزل بحرارة وود. تعرفت الى بعض الاصدقاء الجدد. انني اجد ليماند متحفظاً ومنطوياً وغريب الاطوار. ارجوك يا ساندي ان تحضري لأن وجودك يساعدني كثيراً ولأنك من لحمي ودمي ويمكنني ان اثق بك في رعاية ابني. اذا وافقت على الحضور اعلميني متى وكيف واين ستصلين وسأرسل من يستقبلك».

طوت ساندي الرسالة واعادتها الى حقيبتها. يوم استلمت ساندي الرسالة واطلعت والدتها عليها كان ردها الفوري:

«عليك بالذهاب. ان ابنة خالك مرتا تعرف ما عليها من واجب لكنها، كما هو واضح، تجد صعوبة في تحقيق غايتها. صحيح انها ستبقى هناك من اجل ابنها ولكنني اقرأ بين السطور انها تخاف من شقيق زوجها. اذهبي يا

ساندي وابقي قربها وامسكي بيدها وشجعيها. مرثا تحب من يمسك بيدها ويحميها ويشعرها بالحب والاهتمام».

وعلى الفور بدأت ساندي استعدادها للسفر واكملت المعاملات الضرورية له واستعملت الباص لأنه ارخص وسائل النقل الى دالكريغان، وها هي الآن تدخل بلدة عنان.

توقف الباص في الشارع العريض الذي بللته الامطار. حركة السير عظيمة. بدأ اللغط باللهجة الاسكوتلندية في حركة نزول وصعود الركاب. جلست امرأة بدينة قرب ساندي. اعتذرت لها لأنها ستأخذ قسماً كبيراً من المقعد المزدوج. كانت تحمل باقة ورد جميلة في يدها. ابدت ساندي اعجابها بالورود فاخبرتها المرأة انها في طريقها الى المستشفى في دمفريز لتزور ابنتها التي وضعت مولودها الأول. كانت المرأة سعيدة جداً بحفيدها وقالت مخاطبة ساندي:

«عرفت من لهجتك انك لست من هنا».

«كلا انا غريبة. قدمت من هامشير في جنوب انكلترا في طريقي الى حصن دالكريغان».

«اوه، ولكن لماذا تقصدين هذا الحصن؟».

«لابقى في ضيافة ابنة خالي التي تسكن هناك. هل تعرفين المكان؟».

«آه. نعم. لقد تربيت في مكان قريب من الحصن وما يزال شقيقي يملك مزرعة بالقرب منه».

«اذن انت تعرفين اصحاب الحصن والعائلة التي تملكه؟».

«الكالدويل السود تعنين؟» تنحنحت المرأة واكملت:

«ليس هناك ما لا اعرفه عنهم».

«اخبريني لماذا لقبوهم بالسود».

«هو يا صغيرتي لقبهم لأن لون بشرتهم يميل الى السواد فشعرهم اسود فاحم وكذلك عيونهم سوداء. ربما ايضاً لقبوهم بالسود نسبة لأعمالهم السوداء في الماضي».

«ما هو نوع اعمالهم السوداء؟».

«اعمال بشعة كالسرقة، النهب، التهريب وما شابه».

«ماذا كانوا يسرقون؟».

«كانوا يسرقون الماشية من الغير، كالخراف والبقر وغيرها. كان العديد من الناس يقومون بمثل تلك الأعمال ولكنهم يبزونهم ويتفوقون عليهم. ومع الأيام اصبحوا من الاثرياء وبالتالي احترمهم الناس لمالهم. سمعت ان الماجور السيد كالفن كالدويل، الذي توفي منذ سنتين، مات مفلساً. عمل في الجيش، مثل جدوده، واستحق العديد من الميداليات لبطولات احرزها في الجيش. كان السيد كالفن منطوياً على نفسه ومنعزلاً عن الناس بعد وفاة زوجته وحزنه عليها. كانت زوجته وقحة ومتهورة وقد تركت له ولدين توأمين ليعتني بهما ويربيهما. شيطانين، شرسين، وغدين ولا يستغرب ذلك فسوء تصرفهما اكبر شاهد على انهما ينتميان الى هذه العائلة السوداء. يعيش كبير التوأمين في الحصن الآن. ترك منزل والده منذ اثنتي عشرة سنة بعد ان تشاجر مع والده لسوء تصرفه بما حط من قدر العائلة، ثم عاد ليرث الاملاك. هو صارم وقاس جداً».

تشعب الحديث بين ساندي وجارتها البدينة وشمل مواضيع اخرى. وصل الباص الى ضاحية بلدة اخرى. نزلت المرأة الثرثارة وتابع الباص سيره ببطء. كانت ساندي تراقب المنازل وقرميدها الأحمر. حجارتها بللها المطر. مرت امامها ساعة قديمة في برج قديم في الشارع الرئيسي. ثم وصل الباص الى ساحة كبيرة قرب النهر حيث نهاية الرحلة.

نزلت ساندي من الباص الى الشارع المبتل. لفحها الهواء البارد على وجنتيها كما داعب خصلات شعرها الأصفر المنسدل على كتفيها. كان صوت انسياب مياه النهر فوق السد يصل لسمعها. تساءلت هل حضرت ابنة خالها لاستقبالها؟

«آنسة فيليبس؟».

سمعت صوتاً خلفها يناديها. كان صوت رجل بارد، غير مميز. كان الذي ناداها لا يهمه ان كانت هي الآنسة فيليبس ام غيرها. التفتت ساندي ناحية الرجل الذي ناداها. كان يقف خلفها مباشرة، اطول منها بقليل، عريض المنكبين، ويلبس سترة صفراء واقية من المطر. شعره الأسود القصير المبلل ينسدل فوق جبهته بدون ترتيب. بانفه مرفوعة الى اعلى اتقاء للمطر. وجهه ممتلىء وصارم بدون اي ابتسام. تجلت قساوته في شدة سواد عينيه.

«نعم انا آنسة فيليبس. ومن انت؟».
اجابها باقتضاب:
«كالدويل من دانكريغان».
الى اي طبقة تنتمي هذه العائلة في علم الانساب؟ تساءلت ساندي وهي تنظر الى الرجل الواقف امامها. لا بد انه ليماند المنطوي، المنعزل، الغريب الاطوار. هو بعينه وريث حصن كالدويل وممتلكاته.
سألها بجفاف وهو يشير الى حقيبة صغيرة بقربها:
«هل هذا كل ما تحملينه معك من متاع؟».
اجابته وهي تحاول الابتسام، رافضة ان يسخر منها ويحط من قدرها.
«نعم. انا اسافر خفيفة».
رمقها بنظرة آمرة وقال:
«الشباب عادة يسافرون هكذا». وفي اجابته حزم اكيد على ان الحديث قد انتهى.
حمل لها حقيبتها على كتفه وادار ظهره ومشى امامها قائلاً:
«السيارة واقفة في الجهة الاخرى من هنا».
كان على ساندي ان تتبعه عبر الشارع العريض المبلل الى سيارة قديمة بالية. وتأمل ان تجد ابنة خالها مرتا وابنها بانتظارها داخل السيارة، لترحب بوصولها. لكن السيارة كانت فارغة من البشر. فتح ليماند صندوق السيارة الخلفي ووضع فيه الحقيبة فوق عدة متنافرة الاشكال مختلفة الأنواع ثم اقفل الصندوق.
«ادخلي!» امرها ثم مشى هو الى المقعد خلف مقود السيارة.
«هل اجلس في المقعد الخلفي ام الأمامي؟».
«كما يحلو لك! الابواب كلها مفتوحة». اجابها بدون اي اكتراث فشعرت بأنها بدأت تكرهه وترفضه، لم تنتظر منه اكثر من لياقات اولية في معاملتها. كان عدم اكتراثه بها وقحاً ومريراً ويصعب عليها احتماله.
وجدت كيساً صغيراً امام المقعد الخلفي على ارض السيارة، لذلك اختارت ساندي المقعد الأمامي. دخلت بعد ان ادار ليماند محرك السيارة. خلع سترته الواقية ورماها على المقعد خلفه، كان يرتدي طقماً رمادياً مخصصاً للصيد مصنوعاً من اجود الأقمشة، وكنزة سوداء لها قبة عالية.

ادار المحرك وحل الكابح وبسرعة قفزت السيارة عدة قفزات ومشت بعدها بصعوبة. مشت فوق الجسر الى جهة الشمال وتوقفت على المفترق تنتظر دورها بالمرور. نظرت ساندي الى اشارة جانبية على الطريق كتب عليها. غلاسكو الى اليمين، من ضمن لائحة بأسماء مدن اخرى. اضاء اللون الأخضر وتابعت السيارة تحركها الى الأمام.
كانت مساحات الزجاج الأمامي تزيل الامطار وهي تزقزق لانها تحتاج للتزييت، والمحرك يخرج اصواتاً نشاذاً. لم تكن تنتظر ساندي سيارة مهترئة كهذه. كانت ابنة خالها تخبرها ان عائلة زوجها كروفورد من الميسورين ويملكون افخر الأثاث ويقتنون سيارات السبور والليموزين وغيرها من السيارات الفخمة.
بدأت رائحة تزكم الانوف تنتشر داخل السيارة. نظرت ساندي حولها متفحصة. لفت نظرها الكيس الموضوع في ارض السيارة خلفها. اعادت التحديق اليه. رأت عجلاً صغيراً يقبع في داخل الكيس ولم يظهر منه سوى رأسه. كانت عيناه مغلقتين. تمنت ساندي ان لا يكون ميتاً. استراحت ساندي بعد ان عرفت مصدر الرائحة الكريهة. نظرت عبر النافذة تتسلى. مرت السيارة بالمنازل القديمة من البناء الحجري الجيد يعلوها القرميد الأحمر وتلفها الشجيرات الوردية كأنها اكاليل الغار. وغيرها من المنازل التي بدأت تلمع الانوار من داخلها لتبدد العتمة التي بداخلها باكراً مع المطر الشديد. تابعت السيارة سيرها وسط حقول شاسعة رمادية بعضها مزروع بشجر الحور القاسي . . . او الدردار.
ودّت ساندي لو تستطيع ان تطرح على رفيقها بعض الاسئلة ولكنها لم تجرؤ لأنه كان يلف نفسه بجدار من الصمت الأمر.
استرقت ساندي النظر اليه بمكر من طرف عينيها. تذكرت جميع الصفات التي اسبغتها عليه المرأة البدينة في الباص «رجل اسكوتلندي قاس وصلب». اعادت النظر. نعم هو كذلك. وجهه وجبهته العريضة وشموخ انفه . . . مع فمه الدقيق وفكه ينحرف في زاوية معينة كأنه تمثال حجري. . . انه يشبه تمثال الفارس النورماندي الموجود فوق قبر في بلدتها هامشير بداخل الكنيسة.
سافرت ساندي مع احلام اليقظة عبر التاريخ وهي تنظر من النافذة الى

البعيد. لا بد ان مؤسس عائلة كالدويل هو فارس نورماندي. تخيلته قادماً من شمال انكلترا ليساعد الملك داوود الأول في تثبيت دعائم ملكه في اسكوتلندا وبالمقابل اعطاه الملك الأراضي الواسعة مكافأة له على مساعداته.

فرحت ساندي بأسطورتها. التفتت الى ليماند الجالس بالقرب منها لتستفسر منه عن اصله وتعرف الى اي مدى توصلت الى الحقيقة في تخيلاتها، لكنها اجبرت على السكوت. هو غير مبال بل متعال. كأنها لم تكن موجودة معه داخل السيارة.

نظرت من جديد عبر النافذة لتكمل نظريتها. كالدويل هو فارس اسود قادم من التاريخ البعيد. يلبس درعاً اسود يوم القتال في المعركة. فارس اسود يقوم بالأعمال السوداء ولكنه شجاع. بطل من ابطال الحروب.

بدأت السيارة تصعد تلة وتجري سريعة في خط مستقيم. كانت كالسهم تخترق طريقها بين الاشجار السوداء وبدت الطريق شديدة العتمة. الاضاءة الأمامية للسيارة ضرورية. ارتال السيارات قادمة من الجهة المعاكسة تلمع اضواؤها كذلك. تشجعت وقالت بدون مقدمات:

«كم من الوقت يلزمنا لنصل الى حصن دانكريغان؟».

«ساعة اخرى» قطع الصمت اخيراً. لا بد له من ان يجيب على سؤالها. هو رجل قليل الكلام. هذا واضح. تململت ساندي في مقعدها. خفضت رأسها مسافة صغيرة واسندته الى حافة المقعد الخلفية لترتاح قليلاً.

«هل توجد مدينة بالقرب من الحصن؟».

«كيركتون».

«هل هي مدينة كبيرة؟».

«كلا. ربما خمسة آلاف نسمة او اقل».

«هل يمكنني الذهاب من دمفريز الى كيركتون بالباص؟».

«يمكنك».

كأنها تخرج الماء من الصخر، كانت تستخرج كلماته بصعوبة. لم تيأس ساندي من جره الى الحديث. كيف يمكنها ان تبقى ساعة اخرى معه في هذه السيارة بدون ان تشاركه الكلام. هذا غير معقول. بدأت:

«كان يمكنك ان لا تحضر لاستقبالي الى دمفريز. كنت استطيع الوصول

بالباص الى كيركتون لوحدي».

ران صمت من جديد، لم يعلق. عرفت انه لن يتجاوب مع دعوتها اياه لفتح الحديث. تقدمت سيارة من الجهة المعاكسة، ورشت الزجاج امامه بالوحل. المساحات الأمامية تعمل على ازالتها بصعوبة. شتم السائق الآخر. قال:

«لم اتضايق ابداً من الحضور لاستقبالك». ثم اكمل ببرود «كنت في موعد عمل في دمفريز. وقد طلبت الي مرتا ان استقبلك في المحطة هذا المساء».

«شكراً. هذا لطف منك».

«ابداً. انا لا افعل الا ما يناسبني. لو اخذت الباص بنفسك الى كيركتون ستصلين في الحادية عشرة والنصف ليلاً. وكان لا بد لي او لجوني من استقبالك في ذلك الوقت المتأخر، فاستقبالك في دمفريز يناسبني اكثر».

صمت آخر. وصلت السيارة الى اعلى التلة ثم نزلت الى الجهة الثانية. طوت السيارة المزيد من الحقول والقرى الصغيرة وبعض التجمعات السكنية. ازداد المطر انهماراً.

تأكدت ساندي الآن ان ليماند كالدويل لا يرحب بها في دانكريغان. ربما دعتها مرتا من دون ان تستأذنه اولاً. فكرت بالأمر، وبدأت تتجهم وتعبس بعد ان استعرضت صفات وتصرفات ابنة خالها. مرتا تتصرف دائماً بتهور وسرعة وبدون ترو. بدأت تقول:

«ارجو ان يكون بقائي مع مرتا في دانكريغان لنهاية الصيف ممكناً».

التفت بسرعة ناحيتها ورمقها بنظرة تساؤل من طرف عينه. اعاد نظره من جديد الى الطريق امامه. كانت الطريق لزجة، سريعة الانزلاق.

«كم ستبقين؟» سألها «هل دعتك مرتا؟».

اذن، صدق حدسها. كانت على صواب في تفكيرها. ارتبكت كثيراً. احرجت. شعرت بالخزي وبأن كرامتها قد هدرت.

«نعم. لقد دعتني». ثم اكملت بصوت خفيض «الم تخبرك؟».

«كلا. كل ما قالته لي هذا الصباح، لما علمت بأني مسافر الى دمفريز، ان لها قريبة ستصل بعد الظهر لتتفرج على الحصن. فهمت من كلامها انك ستمكثين ليلة واحدة في طريقك الى مكان آخر».

جمدت ساندي من هول المفاجأة. لماذا لم تخبره مرتا بالحقيقة؟ نظرت الى وجهه الصارم وتكهنت السبب. انها لم تجرؤ. ربما كانت مرتا تخاف ان لا يوافق ليماند على طلبها في ان تبقى ابنة عمتها عندها بقية الصيف. لهذا لم تسأله. نظرت ساندي اليه خجلة وقالت شارحة:

«لقد كتبت لي مرتا تدعوني لمساعدتها في رعاية ابنها ديرميد».

سألها:

«هل هذا هو عملك؟ هل انت مربية اطفال؟».

«كلا، انه عمل مؤقت خلال اجازة الصيف».

رمقها بنظرة جانبية اخرى بالرغم من العتمة التي عمت السيارة من الداخل وقال بحدة:

«آمل ان لا تنتظري ان تدفع لك اجراً على عملك هذا».

«اوه. كلا. لقد كتبت مرتا انني اساعدها مقابل سكني ومعيشتي!».

احسّت ساندي بمذلة، مما جعلها ترى نفسها ضئيلة امامه. ما اصعب ان يكون الانسان محتاجاً. ان ليماند يتصرف بكبرياء وعنجهية امراء الاقطاع، جدوده. وهي أمامه تستجدي مساعدته ونظرت اليه بترج وقالت:

«سيد كالدويل. انا اشعر بخجل من تصرفات ابنة خالي غير اللائقة. كان عليها ان تستأذنك اولاً».

«انت على حق، كان عليها ان تسألني اولاً. مؤخراً اكتشفت انها غير صادقة وتستعمل طرقاً ملتوية. انا لا افهم لماذا تحتاج لأية مساعدة في رعاية وتربية ابنها. هي لا تعمل اي شيء سوى رعايته».

«معظم الأمهات يحتجن لبعض الوقت يتفرغن فيه لانفسهن وراحتهن. كذلك مرتا مثل بقية الامهات تجد في الأمومة عائقاً مضنياً يشغلها معظم اوقاتها».

وجدت ساندي نفسها تشرح له نظريات تتعلق بالأمومة لم تخطر لها ببال من قبل. هي نفسها لا تفكر ان تمر بهذه التجربة قبل سنوات عديدة اخرى.

«لماذا تقولين اغلب الامهات؟ لماذا ترفض مرتا مسؤوليتها كأم على عكس الامهات؟».

«لا اظنها ترفضها. ولكنها مسؤولية كبيرة عليها لوحدها وهي ما تزال صغيرة السن».

«عرفت امهات اصغر منها بكثير».

«لا تنس أنها الوحيدة المسؤولة عنه بغياب والده».

«وهل هذا جديد تحت الشمس؟».

«كلا. انني فقط احاول ان اشرح لك شعورها ونفسيتها. فهي تحب الحياة...».

قاطعها:

«يعني ان تتمتع هي اولاً ولا فرق بعد ذلك من يتألم من بعدها. كما ان ذلك يعني ان حياتها مع كروفورد كانت موفقة وعظيمة فهو الزوج الملائم لها لأنهما كانا متفقين على حب الحياة واللهو، ولكن ألم يكن موته كافياً ليبطىء من غليان حب الحياة في شرايينها ولو قليلاً.».

«وهل تنتظرها ان تلف نفسها بوشاح اسود بقية حياتها تندبه وتبكيه».

اجابته ساندي، وفكرت في نفسها، ربما يكون ليماند من الظاهرين المتزمتين الذين قرأت عنهم. هم فئة من البشر لا تهتم بمتع الحياة بل تدعو الى التمسك الصارم بأهداب الدين والاخلاق الفاضلة.

وضحك ضحكة عالية ساخرة تهكمية، ولكن ساندي لم تتبين وجهه من الظلمة التي اطبقت على داخل السيارة بعد ان عم الظلام مع دخول الليل، وقال:

«لا. لا انتظر منها ذلك ابداً. متى رأيت مرتا آخر مرة؟».

«بعد الحادث مباشرة يوم رجعت الى انكلترا حزينة. استغرقنا وقتاً طويلاً لاخراجها من عزلتها الى الحياة. والدتي عمتها هي التي رعت مرتا طفلة صغيرة بعد موت والديها قتلاً، تمنت عليها البقاء عندنا، ولكنها صممت الحضور مع ابنها الى اسكوتلندا، كما وعدت زوجها كروفورد، فاذا حصل له حادث في طريق السباق ان تأخذ ديرميد الى جدة ليراه. لم تكن تعرف ان جده قد توفي».

«وهذا ايضاً ما عرفته منها «همهم» وانا لم اكن اعلم ان اخي قد تزوج وعنده ولد قبل حضورها الى الحصن منذ عدة اسابيع. الم يخطر ببالها ان تكتب اولاً وتستأذن بالحضور الى دانكريغان؟».

اجفلت ساندي من انتقاداته اللاذعة، المبطنة لمرتا، وعدم لياقتها في التعامل مع الآخرين. صمتت ساندي مفكرة وهي تعض على شفتها السفلى سألته ساندي:

«الم تعرف انت عنها وعن ابيها؟ الم تكن انت تتصل بأخيك؟».

«حاولت عدة مرات خلال السنوات السابقة ولكني فشلت. كانت رسائلي تعود الي وعليها جملة (انتقل الى سكن اخر غير معروف العنوان). كتبت له حين توفي والدي. لم استلم جوابه او اي كلمة تعزية منه».

«الم يكن كروفورد على اتصال بوالده؟».

وضحك قبل ان يجيبها بالنفي ضحكة ساخرة مريرة. قالت:

«ولماذا لا؟».

«الم تسمعي بالكبرياء يا آنسة فيليبس؟ ان عائلة كالدويل لديها الفيض من الكبرياء. كان والدي وشقيقي كروفورد لديهما تخمة منها. قام شقيقي كروفورد، في الماضي، بعمل اغضب والدي. فطلب اليه والدي مغادرة المنزل وعدم العودة اليه. وهذا ما نفذه كروفورد بدون تردد. لم يحاول شقيقي ترطيب الجو بالكتابة اليه او حتى اخباره بولادة حفيد له».

علقت ساندي على قوله:

«اوه. كم هو حقود كأنه يعيش في ظلمات القرون الوسطى».

كانت ساندي تنتمي الى عائلة متلاحمة الروابط. كل اعضائها على اتصال دائم ببعضهم البعض. علاقاتهم جيدة. لذلك وجدت تصرفات كالدويل واولاده غير لائقة بل همجية ومخالفة لمبادىء المدنية الحضارية.

«اوافقك رأيك. لكن عائلة كالدويل عرفت بأعمالها السوداء واتصفت بما يخجل. واظن ان مرتا لو عرفت عنا هذه الحقائق لما جاءت الينا مع ابيها. لقد صعقت لما اخبرتها ان والدي ترك لنا ديوناً متراكمة ما زلت اعمل كي اسددها حتى الآن».

«اذا كان والدك لم يترك وصية، كيف ورثت لوحدك الحصن والمنزل؟».

«ان الاملاك يرثها الكبير من الابناء في عرف اهل البلد. وانا اكبر كروفورد شقيقي التوأم بخمس دقائق فقط».

«اذن. لم يرث كروفورد اي شيء؟».

«نعم. ليس هناك اي شيء له. فقط بعض السيارات القديمة كان

يستعملها اخي يوم كان في دالكريغان». ثم ضحك ضحكة مبطنة وهو يكمل «كان عليك ان تري وجه ابنة خالك عندما رأيتها وأخبرتها ان سقف المنزل يدلف في فصل الشتاء. لقد تعجبت كيف قبلت البقاء هنا في دالكريغان بالرغم من كل ما ذكرته، وبعد ان خبرت بنفسها، كم ينقص المنزل من اشياء اساسية ليصبح العيش فيه مريحاً بل مقبولاً».

جلست ساندي في مقعدها فاقدة الصواب، صامتة، مصعوقة مما سمعت. تذكرت فحوى الرسالة التي استلمتها من مرتا تقول فيها (من اجل سعادة ديرميد ابني سأعود الى اسكوتلندا - الى دالكريغان لاجعله منزلاً لي وله. كان القصر منزل كروفورد بالسابق وكانت امنيته ان يتربى ابنه فيه ليحظى بالرفاهية التي عاشها هو). كيف يمكن لمرتا البقاء هنا بالرغم من ان احداً لم يرحب ببقائها؟ كيف تفرض نفسها في ضيافة ليماند رغماً عنه؟ هو يكافح ليجمع المال لسدد ديون والده. السقف يرشح ويحتاج لاصلاح وبالتالي للمال. اي رفاهية تنتظر ابنها؟ افضل لمرتا الرجوع الى جنوب انكلترا حيث يمكنها ان تجد عملاً، كذلك يمكن لعمتها جين ان ترعى لها ابنها في اثناء غيابها في عملها. ثم قالت:

«سيد كالدويل! اشعر ان علي ان اعتذر لك عن تصرفات ابنة خالي مرتا. لا يجوز لها ان تفرض نفسها عليك وعلى ضيافتك. لكنها كتبت تقول انك دعوتها للبقاء هنا بنفسك».

«نعم. انا دعوتها. عليك ان لا تنسي ان ديرميد هو ابن شقيقي. احب ان اتعرف اليه»، وقطع حديثه فجأة. واحست ساندي بأنفاسه تهتهس بتنهيدة سخط بل غضب. قالت:

«وهل توصلت لمعرفته؟».

«ليس كما يجب».

«فهمت الآن اسباب عدم ترحيبك بوصولي» قالت ساندي بصوت منخفض ثم اردفت:

«سوف ارحل غداً عائدة ادراجي. هذا اذا سمحت لي بالبقاء ليلة واحدة عندك في دالكريغان».

لم يجب. كان يفكر. احست ساندي كأن قواه قد خارت. صمتت ساندي واعادت نظرها الى خارج السيارة ترقب من النافذة الظلام. اقتربت السيارة من بلدة صغيرة. ارتال السيارات تمر بها وترسل اضواؤها انواراً تشير الى حافة الطريق. ابطأت السيارة ودلفت الى مفرق لجهة الشمال. ومرة ثانية اصبحت السيارة خارج البلدة. الاشجار هنا متلاصقة وملتفة. صف الاشجار على جانبي الطريق يشكل نفقاً تسير السيارات بداخله. انتهى صف الاشجار وخرجت السيارة مرة اخرى الى العراء، الى الريف. ظهرت اشكال غريبة امام السيارة. ابطأ ليماند سرعته، ركضت هذه الأشكال من امامه بسرعة. سألته ساندي:

«ما هذه؟».

«انها خراف».

انزعج العجل الصغير القابع خلفها في الكيس، من صوت الزمور. نخر وتنشق بصوت مسموع. شعرت ساندي بثقل في رأسها كأنها تخدرت. هزت رأسها ورفعته الى اعلى حتى لا يغالبها النعاس ولكن بالرغم من ذلك شعرت ان عينيها مثقلة. اغلقتها وغفت.

أفاقت على صوت توقف محرك السيارة. فتحت عينيها لمحت المنزل وسط العتمة. كانت السيارة قد توقفت امام بعض الدرجات المؤدية الى فسحة المنزل. يرتكز المنزل فوق عواميد حجرية. تنتهي فسحة الدار بقنطرة قديمة بداخلها باب خشبي مزخرف على شكل بيوت العنكبوت. فوق الباب ضوء صغير خافت. اطفأ ليماند ضوء سيارته ومدّ يده الى المقعد الخلفي واخرج سترته الصفراء. فتح بابه وخرج. لبس سترته ومشى الى الصندوق الخلفي واخرج منه حقيبة ساندي. فتحت هي بابها بنفسها ورفعت قبة سترتها على رقبتها كي تحمي شعرها ما امكن من البلل. مشت الى خلف السيارة وحملت بنفسها حقيبتها. اغلق ليماند صندوق السيارة.

«ادخلي الى المنزل». تكلم بلهجة آمرة اعتادها واكمل «علي ان احمل العجل الى الزريبة».

مشت ساندي مطيعة اوامره، تحمل حقيبتها. صعدت الدرجات وتمكنت رغم الانارة الخفيفة من رؤية الباب الخارجي. ولاحظت فوراً قدم الباب وحاجته الى دهان وتصليح. كان فوق الباب جرس قديم متدل.

امسكت به لتقرعه. فوجئت بمسكته تنقطع وتبقى في يدها قبل ان يسمع للجرس رنين. لم يكن الجرس موصولاً بأي سلك كهربائي وهو غير صالح اصلاً لأي استعمال. حاولت ساندي اعادة المسكة لمكانها ولكنها لم تفلح بل سقطت من يدها واحدث سقوطها قرقعة عندما ارتطمت بالأرض. التقطت المسكة واحتارت ماذا ستفعل بها. سمعت وقع اقدام على الحصى. ثوان وظهر ليماند. قفز الدرجات بخفة ونظر الى يدها الممسكة بالجرس المقطوع.

«حاولت قرع الجرس. وقعت المسكة...» كانت ساندي تشرح له ما حصل وتمد يدها وبداخلها مسكة الجرس.

«ارجو ان لا تكوني من هؤلاء الناس الذين يخربون كل ما يلمسون».

كان ليماند يكلمها بلهجة ساخرة وقد مد يده واخذ مسكة الجرس ووضعها مكانها واكمل «لأن قصر دانكريغان كله يحتاج لمن يمسك باشيائه بلطف وانتباه والا يتفتت ويخرب. الباب لا يقفل ابداً. كان عليك ان تديري مسكة الباب الخارجية فيفتح».

فتح لها الباب واشار اليها بالدخول. دخلت الى قاعة كبيرة تدلت من سقفها ثريا قديمة خافتة الأضواء لأن بعض اقسامها كان خالياً من اللمبات. وسط القاعة سجادة هندية خيوطها بالية ولونها باهت. كانت تغطي قسماً مربعاً من الأرضية الخشبية. توجد سلالم تؤدي الى الطابق الأول الى يمين القاعة. لم تكن السلالم مغطاة بأي سجاد. في طرف القاعة بعض الكراسي الاثرية ويوجد على الحيطان بعض الصور الزيتية في اطارات فخمة مطلية بالذهب. حيطان القاعة لونها أصفر باهت.

فتح باب الى اليمين وخرجت منه امرأة وخرج معها من الغرفة صوت تلفزيون مسموع. تمنت ساندي ان تكون تلك المرأة ابنة خالها مرتا ولكن املها خاب لأن المرأة اطول واكبر سناً من مرتا. قالت المرأة:

«سمعت الباب يفتح، هل وجدت الفتاة القادمة من انكلترا يا ليماند؟».

«نعم، هذه ساندي فيليبس».

«اهلاً وسهلاً في دانكريغان» قالت المرأة وهي تبتسم. كانت ترتدي تنورة من قماش التويد الصوفي وفوقها كنزة صوفية. شعرها الأسود يخالطه

الباهي مما اعطاه لونه الرمادي، تعقصه بضفيرة حول رأسها.

«هذه نان كوري وهي مديرة المنزل منذ عشرين سنة».

«تشرفنا».

«أين مرتا؟».

«ذهبت الى نادي اليخوت مع جول».

«وأين الولد؟».

«نائم بعد ان قصصت عليه القصص العديدة». قالت نان وهي تبتسم. ثم التفتت الى ساندي وقالت:

«انت متعبة جداً بعد هذه الرحلة الطويلة. كذلك لا بد ان الجوع قد استبد بك. سأضع ابريق الماء على النار من اجل الشاي. ضعي حقيبتك في اسفل السلالم وستحملها الى غرفتك في الطابق العلوي بعد العشاء. الى اليسار ستجدين حماماً صغيراً. اغسلي يديك واتبعيني الى المطبخ من اجل الطعام. نحن لا نستعمل غرفة الطعام في هذه الأيام الا نادراً».

سرت ساندي بترحيب نان بها. غسلت يديها ومضت لتوها الى المطبخ عبر ممر الى يمين القاعة. جلست الى طاولة كبيرة يغطيها شرشف زاهي الألوان، نظيف. اكلت وجبتها التي وضعت امامها بنهم بدون ان تنبس ببنت شفة. كان يجلس معها ليماند يأكل وجبته التي امامه بدون كلام.

المطبخ مربع وواسع وله ارض حجرية. كان لهيب نار خفيف يخرج من الموقد القديم، منظر بديع في ليلة شديدة المطر. والسنة اللهب تنعكس على ادوات المطبخ النحاسية المعلقة على الحيطان. خزائنه الخشبية دهنت بلون اصفر في محاولة لتجميله. زهور ونباتات عديدة من النوع الذي يعيش داخل المنازل هنا وهناك فوق الرفوف او على ظهر الخزائن.

كانت نان تقوم على خدمتهما اثناء الطعام. تصب الشاي الغامق من ابريق فخار وهي تسأل ليماند اسئلة تتعلق برحلته من والى دمفريز وتسمع اجاباته، وترقب ساندي بطرف عينها.

شعرت ساندي بنظرات نان الفاحصة لها، كما لاحظت الشبه الكبير بينها وبين ليماند. الاثنان لهما شعر اسود وعينان سوداوان. بشرتهما مائلة الى الاحمرار وتقاطيع وجهيهما غريبة عن اسكوتلندا. ربما بعض الجدود

قدم من الشرق الأوسط وربما تكون نان والدته.

«كلا. انا لست والدة ليماند ولكنني ابنة عم والده كالن كالدويل وجدودنا واحدة. والدتي كانت شقيقة والدة كالن».

قالت نان، كأنها قرأت ما كانت تفكر به ساندي.

«اوه!» استغربت ساندي ونقلت بصرها بين ليماند ونان بسرعة وسألتها «كيف عرفت بما كنت افكر فيه؟».

«انت صغيرة، وعيناك صافيتان تعكسان ما في داخلك». اجابتها نان بصوت جهوري واضح. كانت عيناها السوداوان ترسلان بريقاً ساحراً. ثم اكملت «لم تتعلمي بعد يا صغيرتي كيف تخفين ما بداخلك. انت واضحة كالنهار وهذا ما يجعلك طيبة وحبيبة، مع انه يشكل خطراً عليك».

«هل عدت الى تكهناتك؟» سألها ليماند ونظر الى ساندي وخاطبها:

«تزوج احد ابناء كالدويل، قديماً، غجرية صغيرة، كانت ابنة ملك الغجر في هذه الضواحي. تحمل نان في عروقها دماً غجرياً بالوراثة. وتكهن ان هذه القطرات الغجرية تمكنها من قراءة الافكار والتنبؤ بالمستقبل. لا تأخذي ما تقوله لك على محمل الجد فهو لا يحمل من الحقيقة قدر ذرة ملح».

«لا تضحك ولا تسخر مما ورثناه انا وانت من جدودنا». اجابته نان وهي تبتسم بحنان.

كانت ساندي تفكر ان الدم الغجري بينهما يمكن ان يكون السبب في سواد الشعر والعينين عندهما. علم اجناس البشر واصوله يثبت ذلك، اذن نظريتها صحيحة بالنسبة الى عائلة كالدويل من ان احد جدودهم قدم من الشرق الأوسط. ان كلمة غجري تشتق من كلمة مصري. وهي كلمة اعطيت لجماعة من الرحل قدموا الى انكلترا في القرن السادس عشر. وربما يكون الشعر الأسود والعينان السوداوان وراثة عن جماعة استوطنت اسكوتلندا في قديم الزمان تعرف بالبكتس (هم جماعة غريبة لا يعرف عنهم الا القليل تاريخياً).

وكانت ساندي قد سرحت برحلة عبر التاريخ، كعادتها، فلم تسمع ما دار من حوار بين ليماند ونان. واجفلت قليلاً حين ابعد ليماند كرسيه ليقوم، بعد ان اكمل طعامه. قال يخاطب نان وهو واقف:

«هل عندك مكان لتنام فيه ساندي؟».
«نعم في الغرفة المجاورة لجناح الطفل».
«اظنك ستقولين لي انك عرفت انها قادمة الى هنا كي تساعد مرتا في رعاية الصغير، مع ان مرتا اهملت كلياً ان تخبرني انها دعت ابنة عمتها لتبقى معنا لنهاية الصيف». كان ليماند يخاطب نان بجفاء وقد رفع حاجبيه وانفرجت اساريره عن ابتسامة ساخرة.
اتسعت عينا نان من المفاجأة وجالت نظرها بسرعة بين ساندي وليماند واجابت:
«كلا. كلا لم اعرف. فقط لأنني ظننت ان وجودها قرب غرفة ابنة خالها مطمئن لها».
صمتت نان وبدا على وجهها هم كبير. ثم خاطبته بسرعة:
«لن تعيدها الى انكلترا؟ لن تحرمها ضيافتك لأن مرتا لم تصرح لك حقيقة رغبتها؟».
«لن يعيدني الى بلدي بل انا التي اخترت العودة بنفسي. ساعود غداً بعد ان ارى ابنة خالي. ساعود بعد ان أعرف منها حقيقة ما حصل».
دافعت ساندي عن كرامتها بصوت متهدج واكملت «متى يرحل الباص من كيركتون الى دمفريز غداً؟».
وران صمت لفترة بين الثلاثة. حدق ليماند لأول مرة في وجه ساندي. انها المرة الأولى التي يوجه اليها نظره ويرى وجهها بوضوح. مرت فترة وجيزة وهو يتفحصها بعينيه السوداوين. احست ساندي ثقل نظراته فوق جسمها كله. تسربت حمرة الخجل الى وجهها الشديد البياض. كان ليماند يفكر بالحل السريع لهذه المشكلة الجديدة. وبسرعة كمن توصل الى قرار مهم قال:
«لا لزوم لذهابك بالباص غداً. يمكنك البقاء اسبوعين فقط تساعدين فيها مرتا في رعاية الصبي. تذكري دائماً انني انا مضيفك وانا دعوتك للبقاء في منزلي».
كانت لهجته آمرة، وهذا جزء من طبيعته، ولكن وجهه الصارم لم يكن خالياً من الطرافة وعدم الاكتراث والبرودة كالسابق...
«شكراً». قالت ساندي ببطء وانكسار. تحيرت هل عليها ان تنحني له

اجلالاً لكرمه. لم يجبها ليماند على شكرها. هز رأسه ودار خارجاً من المطبخ. نظرت ساندي الى نان نظرة استغراب. كانت نان تخفي ضحكة واضحة على وجهها وهي تصب المزيد من الشاي لنفسها.
ثم قالت:
«يستطيع ليماند ان يكون متعجرفاً حين يشاء. كنت اتساءل متى يعود لطبيعته الآمرة من جديد. منذ حضرت ابنة خالك مرتا الى هنا، وجلبت معها خبر موت كروفورد بقي ليماند منطوياً على نفسه، هادئاً وحزيناً. لم يكن احد يستطيع التكلم معه. الانباء المحزنة قلبت كيانه وغرق في حزن شديد على اخيه. بعد ذلك مر بفترة شك في صحة زواج اخيه بابنة خالك!».
قاطعتها ساندي:
«اوه. لماذا الشك؟».
«لم يكن لديه علم بزواج اخيه وظن ان مرتا محتالة ومزيفة».
ودافعت ساندي عن ابنة خالها قائلة:
«لا يمكن لمرتا ان تفعل ذلك. انا واثقة من صدقها. كانت زوجة كروفورد بالتأكيد».
«تأكد ليماند من صدقها بعد ان رأى وثيقة زواجها. في البداية لم يصدقها».
«كم هو كثير الشك!».
«انه ليس شكاً بقدر ما هو حذر. ان ليماند يعرف اخاه اشد المعرفة، كما تعرفين انت ابنة خالك. كان من المحتمل ان يعيش كروفورد مع مرتا بدون زواج وبالتالي يكون الصبي ولداً غير شرعي».
«افهم الآن تفكيره وسبب حذره».
سرت من شرح نان لهذه الأمور الدقيقة.
«هل تعرفين كروفورد؟» سألتها نان تستوضحها المزيد من المعلومات لأن ذلك من صلب اختصاص عملها في منزل دانكريغان واسراره. واكملت «هل حضرت زواجهما؟».
«كلا. لم اكن موجودة يوم تزوجا. كان الزواج في باريس حيث كانت تعمل مرتا عارضة ازياء لاحد بيوت الازياء هناك. ذات ليلة التقت

كروفورد في حفلة وتزوجا بعد اللقاء بثلاثة ايام».

«نعم» اومأت نان برأسها موافقة «هذا ما قالته لنا مرتا. كان زواجهما رومانطيقياً! الا تظنين ذلك؟».

«اوافقك رأيك» اجابت ساندي واردفت «ولم نرها بعد ذلك في انكلترا الا يوم عادت مع ديرميد ابنها في الربيع الماضي بعد الحادث المشؤوم. كانا يقتتلان كثيراً».

«نعم. كان كروفورد يحب التنقل ويكره الاستقرار. ترك دانكريفان بعد ان غادر ليماند المنزل في دانكريفان».

تنهدت نان وسرحت عبر ذكرياتها. قامت ساندي تجمع الصحون الوسخة. كان عليها ان تبدي رغبتها في المعاونة في اعمال المنزل بالرغم من شدة تعبها. اعترضتها نان بلطف:

«اتركي، لا عليك».

«لكنني ارغب في مساعدتك فترة اقامتي هنا». وتمتمت «لو ان مرتا استأذنت السيد كالدويل قبل دعوتي لتمضية الصيف هنا؟ الا يكفيه ان يعيلها هي وابنها؟ هو الآن مثقل ايضاً بضيافتي!» كانت تجمع بقية الصحون وتضعها في المغسلة. «علي ان اعمل لقاء سكني ومعيشتي هنا...».

«لا تهتمي. ارجو ان لا يكون ليماند قد اثقلك بشرح اعبائه المالية؟» قالت نان وهي تضحك.

«نعم ذكر لي ان عليه ديوناً متراكمة ورثها عن والده وهو يعمل لسدادها. كذلك ذكر لي ان السقف يرشح في فصل الشتاء ويحتاج للترميم. ثم لحقت بنفسي انه يحتاج لسيارة جديدة بدل سيارته المكسرة والمحطمة التي يستعملها و...» كانت ساندي تتكلم وهي مهمومة. فتحت حنفية الماء الساخن وبدأت عملية جلي الصحون المتراكمة امامها.

«كل ذلك صحيح» اجابت نان وهي تحمل الى ساندي بقية الصحون الوسخة لتنظفها. «لقد تعب كثيراً خلال السنتين الماضيتين حتى تمكن من ايفاء جميع ديون كافن. لكنه انتهى من هذه الأزمة، تقريباً».

«سيدة كوري...!».

«ناديني نان. الكل يناديني بهذا الاسم».

«اذن. هل لديك فكرة. لماذا لم تستأذنه مرتا قبل ان تدعوني؟».

«لانها تخاف منه قليلاً».

«هذا ما قالته لي امي وهي تقرأ بين السطور في رسالة مرتا لي. لكن لماذا تخافه؟».

«اعتقد لشدة الشبه بينه وبين اخيه في المظهر الخارجي ويختلف معه كثيراً في الطباع والاخلاق. انه غامض وهذا يخيفها. الا توافقين؟».

«الغموض يخيف لفترة قصيرة». اجابتها ساندي ثم سألتها «ماذا تعرفين عن كرفورد؟»

«كان يخالف في طباعه كلياً شقيقه ليماند. كان كثير الحركة، طائشاً، متكبراً، سريع الغضب شديد الحساسية، ويستولي على محبتك لدقيقة ويثير غضبك بطيشه السريع دقيقة ثانية. كان الابن المفضل لوالده كافن. لكنهما تشاجرا آخر المطاف».

تنهدت نان وهي تعيد هذه الذكريات واكملت:

«لو كتب كرفورد لوالده يعلمه بولادة حفيده لكان كل شيء هنا قد تغير وربما رأب الصدع الذي اتسع بينهما مع مرور الأيام».

تمنت ساندي لو تعرف سبب شجارهما ولكنها احست ان نان انزعجت من اثارة هذه الذكريات الأليمة. اكملت ساندي جلي الصحون بدون حديث. وعندما انتهت منها همت بتنشيفها ولكن نان اصرت عليها بالتوقف قائلة:

«لقد عملت اكثر مما يجب. ارى انك منهوكة القوى من شدة التعب، سأريك غرفتك لتنامي».

«اود رؤية ابنة خالي قبل ان انام».

«سترينها في الصباح الباكر. كل شيء يكون في الصباح على ما يرام. الشمس المشرقة فوق الرمال. الطيور المزقزقة. سأخبر مرتا بوصولك حين تحضر من سهرتها. تعالي الآن معي الى الطابق العلوي».

اقتنعت ساندي. لحقت بها الى الطابق الثاني. جناح الطفل يقع في اقصى الممر بعد ثلاث غرف نوم. واحدة ليلعب فيها الصبي وواحدة لمرتا وقربها غرفة ساندي.

«هنا الحمام». قالت نان وهي تشير الى باب مفتوح يخرج منه نور

ضئيل.

وكان ديرميد يخاف العتمة وقرقعة ابواب القصر وصريرها. ابقيت له هذا الضوء في الليل. ستنامين في هذه الغرفة القريبة من غرفته. هي غرفة صغيرة ولكنها تطل على الحصن القديم ومصب النهر. هل هناك اي سؤال قبل ان اتركك؟».

«نعم. لدي سؤالان من فضلك. اذا لم اعرف اجابتها لن انام!».

«اسألي فوراً. انا افهمك».

«اولاً: من هو جوني؟».

«هو ابني الوحيد. شاب مهذب ويصغرك بقليل. عمره واحد وعشرون سنة. عاش كل حياته هنا. حضرت الى القصر بعد ولادته لنعيش ونستقر هنا. لم اكن املك اي شيء. قتل والد جوني بحادث. صدمه جرار في المزرعة ومر فوقه. كنا نستأجر من كافن مزرعة صغيرة. سيعمل جوني في خدمة ليماند فترة الصيف فقط. هو مثلك طالب جامعي. لديه بعض الاصدقاء في نادي اليخوت. دعا مرتا الليلة لمصاحبته ليمرحا قليلاً. اسألي سؤالك الثاني!».

«ماذا يعمل السيد كالدويل؟».

«هو ملاك مع انه لا يملك الكثير من الأراضي، باع عدة مزارع كانت تؤجر لمزارعين يعملون عنده. كذلك باع الأراضي الواقعة في الناحية الثانية الى البناء، باع بعض املاكه ليسدد بثمنها بعض الدين. كذلك استعمل قسماً اخر من المال للبدء في استصلاح اراضيه الزراعية».

«اقصد ماذا يفعل للأرض لتصبح منتجة وتعطيه المال؟» كانت ساندي تستوضحها في محاولة لمشاركة ليماند همومه المالية. واكبرها في نظرها اعباء اعالة مرتا وابنها.

«لديه قطيع من الابقار والخراف وبعض الحيوانات اللبونة الاخرى. لديه فراخ. والآن بدأ بتربية الأرانب.» اجابتها نان وهي تبتسم إبتسامة عذبة حنونة.

«انه مزارع!».

«نعم. هذا ما يسمى. كان والده كافن يفضله في الجيش مثله. لكن ليماند كان يرغب في تربية الحيوانات المختلفة. ادارة المزرعة همه. كان

دائم الخلاف مع والده بسبب ادارة الاملاك مما اضطر ليماند لترك دانكريغان. تنقل في بلدان مختلفة في بريطانيا يعمل في المزارع. هل ترغبين في المزيد من الاسئلة يا عزيزتي؟»

«شكراً. هذا يفسر الآن وجود العجل الصغير في المقعد الخلفي في السيارة».

سُرّت ساندي ان بعض الغموض بدأ ينجلي حولها.

«عمتِ مساء. سأتركك لتنامي وتصبحين على خير».

كان الفراش قاسياً وضيقاً ولكنه نظيف. رائحة الشراشف ذكية. نامت ساندي فوراً. حلمت قبيل انبلاج الضوء انها سجينة في قبو الحصن. حضر لنجدتها من سجنها فارس يمتطي حصاناً اسود ويلبس درعاً من القرون الوسطى. كانت اوسمة الشرف تزين صدره وفي خوذته ريشة زاهية. ترجل عن حصانه ومشى شاهراً سيفه بيمينه. ولما وصل اليها رفع قناعه عن وجهه. نظرت اليه لتتعرف الى مخلصها. وجدت نفسها تحدق في عيني ليماند كالدويل السوداوين.

٢- الزائرة!

استفاقت ساندي مذعورة من حلمها، لتجد نفسها وحيدة في غرفة نوم صغيرة. هذا هو اليوم الأول لها في دانكريغان. كانت أشعة الشمس تدخل الغرفة من فتحة صغيرة في الستارة المخملية الخضراء العتيقة، التي تغطي قسماً من النافذة لا يتعدى اطارها. سمعت ساندي زقزقة عصفور صغير يغرد. مع صوت العصفور أصوات اخرى متشابكة. لطرقة حديدية تعلو الحديد وأصوات رجال يتكلمون. صوت محرك سيارة بدأ يدور. وشاحنة أو جرار ثقيل يسير فوق الارض.

قفزت ساندي من فراشها ونظرت من النافذة بعد ان فتحت الستارة. كانت غرفتها تقع في مؤخرة المنزل وتشرف على ساحة خلفية تحيط بها ابنية زراعية بيضاء. كانت شاحنة لنقل الحليب تحاول الخروج من الساحة الى الطريق العام. يقف بالقرب من الشاحنة شاب يلبس بنطلون جينز وقميصاً بدون اكمام وفوقه كنزة صوفية خفيفة قبتها مفتوحة على شكل سبعة، وينتعل جزمة مطاطية، يراقب خروج شاحنة الحليب بحمولتها، ولمّا خرجت الشاحنة وضع أصابعه في فمه وصفر. وللفور ظهر كلب لونه اسود يخالطه بياض. كلّمه الشاب ومشى وأياه الى بناية مجاورة، دخلاها. وبعد ثوان قليلة خرج من البناية قطيع من الابقار والماشية، بعضها اسود وابيض، يمشي، مترنحة ببطء. نظرت ساندي الى البعيد خلف الساحة. رأت حقلاً أخضر فسيحاً وفي وسطه حصن عال، حجارته رمادية تلمع تحت اشعة الشمس. الحصن موجود فوق هضبة من العشب الاخضر وتجري بجانبه المياه الزرقاء تتراقص مع اشعة الشمس حيث يصب النهر.

الحصن مربع وفيه نوافذ ضيقة مشقوقة طولا. وجود الحصن ينبىء عن سلطة وعظمة وقوة عائلة كالدويل في الماضي. شعور مثير انتاب ساندي وهي تراقب الحصن من بعيد. هو الشعور نفسه الذي يخالجها كلّما وجدت نفسها في مكان أثري تاريخي.

سمعت ساندي صفيراً مرة ثانية، في الباحة . . . التفتت الى مصدر الصفير. كان الشاب قد خرج من الزريبة ينظر اليها، وجهه مكشراً عن ابتسامة عريضة. وبعد ان استرعى انتباهها اليه، بادرها محيياً اياها وهو يلوح لها بيده. ردّت له تحيته بأن لوحت له يدها ايضاً وتراجعت الى داخل غرفتها.

لبست ثيابها بسرعة. وما ان انتهت حتى سمعت طرقاً خفيفاً على بابها. فتحت الباب. كانت نان تحمل لها فنجاناً من الشاي. وكان ديرميد الصغير ذو العامين، ممسكاً بثوبها الطويل القديم. كان شعرها جديلة طويلة على كتفها. وما ان لمحت ساندي ديرميد حتى اختفى وجهه خلف نان.

«جلبت لك فنجاناً من الشاي. هل نمت جيداً؟».

«شكراً. نعم نمت فوراً. شكراً لاحضارك فنجان الشاي. ارجو ان لا تفعلي ذلك كل يوم. انا معتادة ان استيقظ باكراً». قالت ساندي لمّا رأت الصغير، «أهلاً ديرميد، هل تذكرني؟».

نظر الصغير اليها وهز رأسه ايجاباً. نظرت ساندي الى شعره الاسود وقالت في نفسها، لا بد أنه ورث سواد شعره عن والده وعائلة كالدويل. اما عيناه الدعجاوان الواسعتان فقد ورثهما عن مرنا. عيناه مثل عيني الهرة. لا يرف له جفن اذا حدق.

«سآخذ ديرميد الى المطبخ من أجل فطوره. مرنا ما تزال نائمة. لقد عادت البارحة مع جولي بعد منتصف الليل».

«لكن جولي استفاق باكراً!».

«نعم. لقد أيقظه ليماند ليرعى الأبقار. هذا عمله لهذا الصيف. عليه رعاية البقر وحلبها وشحن حليبها للسوق كل صباح. هل تحبين العصيدة مع الزبدة ثم اللحم مع البيض للفطور؟».

«هذا كثير!».

«سأطبخ من أجل جولي ويمكنك مشاركته فطوره. ليماند تناول فطوره

باكراً وذهب الى كيركاد برايت سيغيب اليوم بطوله. لديه اجتماع مع اعضاء المجلس البلدي». انهت نان تفصيلاتها ولمست شعر ديرميد وهي تقول له «تعال، اتبعني، ستتاول فطور الصباح».

نزلت ساندي الى المطبخ وكان قد سبقها جوني الى طاولة الطعام وبدأ يتناول فطوره. كذلك كان ديرميد يجلس على كرسي خشبي عال قديم وقد وضعت نان فوطة حول عنقه، يحاول أن يطعم نفسه بجهد جهيد.

«اجلسي يا ساندي» قالت لها نان وهي تضع امامها صحن العصيدة.

«هذا ابني جوني، هذه ساندي ابنة عمة مرتا يا بني».

«أهلاً» قال الشاب وهو يكشر عن أسنانه بابتسامة عريضة. شعره أسود قصير وقد انسدلت غرة فوق جبينه من الأمام. تكاوينه كبيرة ولا يشبه والدته أوليماند. «اهلاً بك في دانكريغان. الظاهر أن قدومك خير علينا فقد جلبت معك الطقس الجيد. قالت لي مرتا انك تخرجت لتوك من الجامعة في علم التاريخ. ماذا ستفعلين بعد التخرج؟ هل ستدرّسين في مدرسة؟».

«كلا، لن أعمل. احاول أن اتابع دراستي الجامعية للحصول على درجة علمية أخرى.

ماذا تدرس أنت يا جوني؟».

كان حديثها معه سهلاً ومنفتحاً. شخصيته لينة لا غموض أو قساوة فيها.

«ادرس علم الاحراش. سأتخرج بعد سنة من الجامعة، أحب أن أتجول في العالم قليلاً وأعمل في مدن مختلفة، كما فعل ليماند، لأكتسب خبرة ضرورية قبل أن أستقر. ستحبين هذا المكان اذا كنت تهتمين بعلم التاريخ. توجد آثار قديمة عديدة هنا. لا تمشين خطوتين الاّ وتقعين على آثار او بقايا آثار».

اجابها بلباقة:

«رأيت الحصن هذا الصباح وأظن انه بني في القرن الرابع عشر. هل تعلم متى امتلك آل كالدويل هذا المكان؟».

«لا، لا تسأليني. أنا لا أعرف أكثر مما دار من منتصف القرن العشرين فقط».

أجابها وهو يضحك ثم نظر الى والدته وقال:

«هل تعرفين يا اماه متى حضر مؤسس عائلة كالدويل الى هنا؟». وضع صحنه بعيداً وتناول صحن البيض واللحم.

أجابت نان:

«قال لي كافن ان العائلة تتحدر من صلب فارس نورماندي يدعى سيرغاي. قدم لمساعدة الملك داوود الأول من أجل تثبيت حكمه في سكوتلندا».

«كان ذلك حوالى القرن الثاني عشر». علّقت ساندي. كانت مسرورة من أن نظريتها الاولى برهنت عن صحتها.

«نعم هذا صحيح» أجابت نان ثم اكملت «كان كافن يقول انه وجد عدّة ابنية في الطرف الآخر، ويعتقد ان هناك مستوطنين قبل آل كالدويل. وقد بدأ حفريات عدة في الأرض للاستكشاف والتنقيب».

«تنقيب عن الآثار!» صرخت ساندي بحماس.

«نعم. كان يجرب يديه من وقت لآخر يحاول العثور على جواهر قديمة او ادوات فخارية مما يساعده في معرفة تاريخ المستوطنين الأوائل هنا. حاول كافن ان يكتب تاريخ حصن دانكريغان».

«ماذا حل بمخطوطاته؟ هل نشرها؟».

سألتها ساندي بالحاح.

«كلا. مات قبل انجازها. هي موجودة في المكتبة. صفحات وصفحات من الكتابة».

«هل يمكنني قراءتها؟» سألتها ساندي ثم نظرت الى جوني لأن نان استدارت الى جانب الموقد. رفع جوني كتفيه اشارة انه لا يعرف وقال:

«عليك استئذان الرئيس هنا، هو الفارس الحالي في دانكريغان. المكتبة في حالة كبيرة من الفوضى. كان الرجل العجوز كافن لا يسمح لأحد بدخولها، ولكنني آمل ان لا يكون علم التاريخ هو همّك الوحيد؟ هل قمت بأية رحلة بحرية في السابق؟».

«نعم. نملك أنا وأخي زورق تجذيف صغيراً نستعمله في عطلة نهاية الاسبوع. نجوب فيه الشاطىء الجنوبي بحراً».

«اذن ربما تبحرين هنا أيضاً. لي صديق يدعى رون كارسن.

اشترى مؤخراً مركباً شراعياً ويأمل أن يستعمله في السباق ما رأيك في مشاركتنا رحلتنا هذا الأحد؟».

«أحب ان أشارككما ولكني لا أعرف برنامج عملي بعد. لقد حضرت الى هنا لرعاية ديرميد من وقت لآخر ولست في عطلة صيفية للراحة والاستجمام!».

ودهش جولي كما دهش ليماند من قبل، وتعجب ان تكون مرتا في حاجة لمن يساعدها في رعاية ديرميد. ثم قال:

«امرأة عظيمة هي مرتا. أليس كذلك؟ لا وقت لديها لتفاهة تحرير وحقوق المرأة أو مساواتها بالرجل. همّها ان تحافظ على جمالها وتلفت الانظار اليها وتظهرها بمظهر لائق وفاتن. هي صعبة المنال. ثم اردف يسألها: «كم ستمكثين هنا؟».

«لا أعرف بعد، ذلك يتوقف...» لم تعرف ساندي بماذا تنادي ليماند. اذا كان فارساً حقيقياً فعليها مناداته بسير ليماند...

«يتوقف على الرئيس» أكمل جولي عنها جملتها وقد أتسعت تكشيرته.

«هل هو فارس حقاً؟».

«أفضل من فارس. لقد ورث لقب بارون عن جدوده».

شرحت نان لها وهي تضع أمامها صحن البيض مع اللحم وأكملت حديثها: «هل ترغب في المزيد من الشاي يا جولي؟».

«كلا شكراً يا أماه. عليّ أن أعود لعملي. أحد الجرارات يتعبني، ولقد وعدت ليماند بتصليحه».

انهت ساندي فطورها وساعدت ديرميد في طعامه. حملت الصحون الوسخة الى المغسلة من أجل جليها لكن نان رفضت أن تدعها تنظفها قائلة:

«كلا. كلا يا صغيرتي. اتركي الصغير معي واحملي هذه الصينية لمرتا في غرفتها. ستفاجئها بمفاجأة صغيرة. ستجدينها في غرفتها مقابل غرفة الصغير. سلّمي عليها وثرثري واياها قليلاً».

ظهر الممر رثاً بالياً اكثر من السابق في وضح النهار. تسلقت ساندي السلالم العارية من السجاد وأجالت بصرها في اطارات الصور الزيتية المطلية بالذهب المعلقة على الجدران. كلها رجال سود العيون والشعر.

كان يرتدي لباساً عسكرياً لفارس في الجيش. كتب اسمه في أسفل صورته وعليها تحديد وظيفته في الجيش، فارس دانكريفان.

دخلت غرفة مرتا بلطف. مشت الى طاولة قرب السرير ووضعت عليها الصينية. حاولت فتح الستائر عن النوافذ. كانت غرفة مرتا تطل على المدخل الرئيسي للمنزل. الى جانبي الممر المؤدي الى المنزل، عشب أخضر ترعى البقرات السود والبيض منه مسرورة راضية. بعضها يتمشى في الممر بدون حرج. خلف الممر منحدر تغطيه شجيرات شوكيه صغيرة ملفوفة، وقربها بعض شجرات الحور الطويلة وقد مالت باتجاه الرياح. السماء صافية وزرقتها لامعة.

«ساندي، وصلت، كم أنا سعيدة برؤيتك!».

استيقظت مرتا لتوها. جلست في سرير نحاسي قديم ترتدي غلالة نوم شفافة، من اللون الاخضر الفاتح يكشف عن احد كتفيها. جسمها البض ووجهها المستطيل الجميل يتوجه شعرها الأحمر الذهبي يتموج بثورة حول عنقها الفاتن. رفعت يديها لاستقبال ساندي بالعناق ولفورها مشت ساندي نحوها وجلست الى حافة السرير لتعانقها.

«جلبت لك فطورك. اسرعي بأكله قبل أن يبرد». قالت لها ساندي بعد أن انتهت من العناق والترحيب. حملت الصينية ووضعتها أمامها.

«شكراً، أنت حملت فطوري!».

«هي فكرة نان».

«وهل ديرميد معها؟».

«نعم، وعدت ان ترعاه في غيبي عندك».

«حسناً فعلت. يمكنني الآن التحدث اليك حديثاً من القلب للقلب. وجودك معنا سيكون مفيداً. كم تمنيت ان اجد قريباً لي أتكلم معه بصراحة. نان عطوفة وحنونة ولكنها غريبة عني. هي لا تتحمل مني أي انتقاد أبديه هنا بخصوص المنزل أو عائلة آل كالدويل. سكتت مرتا لتأكل بعض الخبز المحمص ثم أكملت «ما رأيك في المنزل يا ساندي؟ ألا تجدينه مرعبة. مفروشاته القديمة أثرية عفنة وبالية. انواره خافتة. كل شيء هنا على الطراز القوطي (نشأ هذا الطراز في فرنسا وانتشر في أوروبا الغربية في منتصف القرن الثاني عشر الى السادس عشر). كل شيء في هذا المنزل

يشير الى مظاهر العظمة والغطرسة للسيد الاعلى، والحاكم المطلق».

«تقصدين سير ليماند!».

«نعم هو من أعني. أرجوك لا تناديه سير يا ساندي. هو صحيح متغطرس ومتكبر وغامض ولكنه يكره الشكليات. اعتاد ان يعيش على طبيعته عندما سكن في كندا، وغيرها من البلاد التي عمل فيها. كيف كان مشوار الطريق معه من دمفريز؟».

«ليس كما يجب يا مرتا. ارتبكت جداً لمّا عرفت أنه لا يعلم أي شيء عن موضوع حضوري للعمل هنا فترة الصيف. كان عليك استئذانه قبل دعوتي».

حدقت مرتا بالسقف، عيناها الواسعتان جامدتان كعيني قطة. قالت:

«كيف عرفت أنني لم اساله؟».

«شعرت ببرودة في استقبالي ونفور من قدومي. واجهته بالحقيقة وسألته اذا كان يسمح لي بالبقاء فترة الصيف».

«اوه يا ساندي. كيف تخذليني هكذا؟».

«أنا اخذلك؟ أنا لم اخذلك بل انت التي وضعتني في مأزق حرج. كيف لي ان اعرف انك لم تستأذنيه؟ أو لم تخبريه حتى بالأمر؟ ما علينا الآن. اخبريني يا مرتا، لماذا لم تساليه؟ هذه ليست من صفاتك ولا طباعك التي تربيت عليها؟».

«صحيح انني لم أساله وذلك لانني كنت اخاف ان يرفض لي طلبي. قلت في نفسي، عندما تحضرين الى هنا سيذعن للأمر الواقع ويقبل ان تبقي. وهذا ما حصل معي أيضاً عندما حضرت الى بابه مع ابني. سمح لي بالبقاء لفترة قصيرة فقط... وها أنا ما زلت هنا للان، وسأبقى حتى احصل منه على كل ما ابتغي».

وصمتت ساندي بعد ان سمعت خطة ابنة خالها وقرارها الشديد. كانت تراقبها وهي تأكل فطورها، قالت ساندي في نفسها: ان مرتا طفلة مدللة اعتادت ان تحصل على كل رغباتها. فطورها تتناوله في الفراش الكل في خدمتها... هذه الفئة من الناس تعيش لنفسها وتحصل في النهاية على كل رغباتها في الحياة ولو على حساب الآخرين. ثم قالت لها:

«الست يا مرتا طفيلية تمتصين تعب شقيق زوجك وتعيشين عالة عليه

انت وابنك؟».

«خذي الصينية، ضعيها هناك يا حبيبتي». قالت مرتا بلهجة آمرة واكملت:

«اجلبي لي فرشاة شعري من فوق طاولة الزينة. سامشط شعري بينما نكمل حديثنا. ساندي حبيبتي، كذلك اجلبي لي المرآة وامسكيها لي بينما انا امشط شعري».

عملت ساندي ما طلب منها وهي تبتسم لنفسها. الظاهر انها ستكون وصيفة خصوصية لابنة خالها بالاضافة الى مربية ابنها. ثم قالت مخاطبة مرتا:

«لم تجيبي على سؤالي؟».

«كلا. لا اعتقد انني عالة عليه» ورمقتها مرتا بنظرة مزعجة عاتبة وأكملت «وزوجي كروفورد ينتمي الى هذا المكان مثل ليماند. وأنا ارملة كروفورد يحق لي البقاء هنا كما يحق لابني». ثم رمت فرشاة شعرها جانباً ولمست كتف ساندي واكملت: «لا تهتمي بهذه الامور ولا تنزعجي. يمكنك البقاء بدون خوف. ليماند سيرحب بك مثلي بعد ان يرى بنفسه كم انت بارعة في رعاية ديرميد».

اجابتها ساندي:

«انا لست مهتمة، لقد دعاني ليماند بنفسه للبقاء هنا فترة أسبوعين».

«دعاك هو بنفسه! اذن لماذا كل هذا الجدل؟».

«ما يزعجني هو شعوري بأني عالة عليه. بل كلّنا عالة عليه. مرتا! لماذا لا تحضرين معي الى هامشير؟ يمكنك الحصول على عمل وهذا أشرف لك من ان تكوني طفيلية عليه».

«وانا أجد عملاً! اوه، لا تقنعيني يا ساندي فانا لا استطيع ان اعمل سوى عارضة أزياء. وهذا يعني أن اعمل رجيماً كي استعيد شكلي ونحافتي. ثم من يؤكد لي الحصول على عمل؟ ومن يرعى ديرميد في غيابي؟».

«عمتك جين ترعاه. الم تطلب اليك البقاء عندنا يوم وصلت بعد وفاة زوجك؟».

«كلا يا ساندي. سابقى هنا ولن أعمل». اكدت مرتا عزمها على تنفيذ

خطتها ثم تابعت: «لقد اكتشفت هنا انني انسانة مهمة. انت تعرفين حب الظهور عندي. ان اسم عائلة كالدويل بالرغم من ماضيها المريب وحاضرها المفلس لأن وضعها المالي مترد، هي عائلة عريقة ومعروفة في المنطقة ولها وزنها بين العائلات. ومع أن السير كافن كان متطرفاً ومنعزلاً عن الناس الا أنه بطل من أبطال الجيش. ولقد انتخب ليماند مؤخراً عضواً في المجلس البلدي».

«لم اكن اعرف ان الوضع الاجتماعي يهمك لهذا الحد».

«صحيح. لم اكن اهتم له بالسابق. لكن اليوم وبعد تجربتي هنا، عرفت قيمته ولمست لمس اليد أهميته وما يعنيه. الجميع يرغبون بالتعرف الي لأنني أرملة كروفورد كالدويل وكنة السير كافن كالدويل وزوجة اخ السير ليماند كالدويل. لهذا سأبقى، سأحاول اقناع ليماند باعطاء ديرميد حصة أبيه في الميراث. وبعد ذلك سأكون سعيدة جداً».

«لكن يا مرتا، ليس هناك ميراث أو مال قد تركه كافن، فقط هذه الأملاك وهي من نصيب الأبن البكر».

«كيف عرفت ذلك؟».

«لقد اخبرني بذلك ليماند ونحن بطريقنا الى هنا قادمين من دمفريز».

«يا الهي! لقد تكلّم ليماند معك كثيراً!». ثم حولت مرتا الحديث الى ناحية اخرى وقالت: «أنا اعرف ان لا وصية مكتوبة ولا شيء موصى لزوجي كروفورد، ولكن ذلك لا يعني ان عمه لا يمكنه مساعدته. كل ما أبغيه لابني علماً لائقاً في مدرسة محترمة، مثل والده كروفورد، ولا بأس لو دفع ليماند مصاريف تعليمه من جيبه. انّ ذلك دين عليه يدفعه لابن شقيقه التوأم. على كل، ابني هو الوريث الوحيد الآن لهذه الاملاك».

«اظن ذلك». تمتمت ساندي وهي مطرقة تفكر في خطط ابنة خالها ثم قالت: «ما هو دوري في مخططاتك؟ كيف يمكنني مساعدتك؟».

«يمكنك مساعدة ديرميد على تحسين تصرفاته». تنهدت مرتا وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلها واكملت: «ان تصرفاته بغيضة ورديئة. دائماً يسيء التصرف أمام عمه ليماند ولا يوجد تقارب بينهما. يوم كنا عندكم في هامشير لاحظت انه يستمع اليك ويتصرّف جيداً أمام الآخرين، حسب ارشاداتك. كم يسرني لو تفهميه ان علاقته الحميدة بعمه تهمني اكثر بكثير

من حسن انسجامه مع بوب سكوت أو ول برودي».

«من هما؟».

«هما اثنان من عمال المزرعة. هو يحب ايضاً جوني كثيراً».

«اظنهم يهتمون به ويتكلمون معه ويشاركونه لعبه». قالت ساندي «الا يهتم به ليماند؟».

«اظنه يحبه، ولكن ديرميد يهرب منه كلّما التقاه ويصرخ، حضر القاتل الازرق».

رفعت مرتا حاجبيها اشارة لجهلها الاسباب، ثم نظرت نظرة فاحصة الى وجه ساندي وقالت:

«الظاهر انك استطعت منذ البداية ان تتفاهمي مع فارس دانكريفان، ولهذا السبب عليك ان تقنعيه في تلبية طلبي. عليك ان تلينيه ليعطف عليّ وعلى ابني».

«أنا أليّنه؟ كيف؟».

«أوه يا ساندي كم أنت بريئة. يمكنك تليينه باستعمال سحرك الانثوي عليه. لقد دعاك ليماند للبقاء هنا، وهذه اشارة جيدة لنجاحك».

«انا! لا استطيع! ولا أريد أن أفعل أي شيء من هذا القبيل».

«تراجعت ساندي الى الوراء خائفة وقالت: انا لست من ذلك الصنف من البنات! لماذا لا تجربين أنت بنفسك تليينه كما تقولين، أنت اكثر خبرة مني في هذا المضمار».

ضحكت مرتا ضحكة مثيرة لها مئة معنى ومعنى. ضحكتها تلك تدير رؤوس الرجال مهما بلغ عنفوانهم. كانت ساندي تفكر مهمومة، التفتت اليها مرتا وقالت:

«جربت سحري عليه يا حبيبتي. فلم أفلح. انه صلب وطينته تختلف عن طينة شقيقه كروفورد. من الصعب على ايجاد نقطة ضعفه. وبما انك من طينة مختلفة عن بقية النساء، ربما تفلحين أنت حيث فشلت أنا، ربما تعرفين نقطة ضعفه. هو لا ينفر من الجنس اللطيف وجاذبيته، وله شهرة واسعة في هذا المضمار مع الفتيات هنا قبل رحيله الى الخارج... أنت يا ساندي جذابة ومثيرة اذا خلعت بنطلونك الجينز ولبست فستاناً يبين سحر انوثتك».

«لكنني ارتاح في البنطلون واجده اقتصادياً». اجابتها ساندي بحدّة ونزق. وضعت المرآة التي كانت تحملها لمرتا لتمشط شعرها ووقفت لتخرج من الغرفة بعد ان شعرت ان المحادثة بينها أصبحت مزعجة. حملت الصينية ونظرت الى ابنة خالها التي ما تزال في فراشها وقالت:

«يمكنك النهوض. ستصبحين سمينة اكثر اذا بقيت وقتاً أطول في الفراش».

تمطت مرتا في فراشها وقلبت شفتيها علامة الامتعاض من تعليقها وقالت:

«فهمت قصدك يا ابنة عمتي. أحذرك يا ساندي ان يوماً قريباً سيأتي وتتمنين رجلاً يراك امرأة مميزة. كلّنا نمر بهذه التجربة آجلاً أم عاجلاً. هنا تكمن المشكلة عندئذ».

«ماذا ترغبين لي أن افعل مع ديرميد اليوم؟» سألتها ساندي وهي تتجاهل تشعب الحديث وانحرافه عن طريقه الاصلي. ثم فتحت الباب لتخرج.

«خذيه الى الشاطىء. انه يحب اللعب هناك. سأراك فيما بعد».

كان ديرميد فرحاً وهو يقود ساندي الى الشاطىء. كان يقفز صامتاً ويده الصغيرة في يدها، بينما يحمل في اليد الأخرى سطلاً ومجرفة صغيرة.

وصلت وأياه الى خليج صغير حيث المياه نظيفة تتراقص فوق الرمال. تحيط بعض الصخور الرملية بالخليج. أطفال وشباب يمرحون على الشاطىء. وجد ديرميد اصدقاءه وهما، فتاة صغيرة من عمره. شعرها اشقر حريري منسدل على كتفيها وعيناها زرقاوان واسعتان واسمها لورنا وشقيقها ايوان في الثالثة والنصف من عمره. شعره احمر بلون الصدأ ووجهه مليء بالنمش. كان مع لورنا وايوان مربية متوسطة العمر وقد جلست فوق مقعد وأمامها رمال الشاطىء. تركت الاولاد يلعبون أمامها ولم تشاركهم لعبهم، كذلك لم تكلم ساندي او تحييها.

لعبت ساندي مع الاولاد بالطابة وصنعت لهم من الرمال اشكالاً مختلفة وحفرت بمساعدتهم القنوات الرملية وغطست رجليها في المياه الباردة. انتهى الصباح على هذا الحال. ولمّا حان وقت الغداء أخذت ساندي ديرميد عائدة به الى دانكريغان بعد ان وعدت الولدين برؤيتهما مجدداً. وصلت

ساندي الى المنزل فوجدت ابنة خالها قد اغتنمت فرصة ذهابها مع ديرميد فذهبت برفقة جوني الى كيركتون لزيارة الحلاق وتصفيف شعرها وسوف لن تعود قبل الثالثة بعد الظهر.

تغدّت ساندي وديرميد وصعدت واياه من اجل قيلولته. بعد ان اطمأنت الى نومه دخلت غرفتها لتكتب لوالديها رسالة تخبرهما انها وصلت سالمة وتعلمهما اخبار ديرميد ومرتا. بعد ان انتهت من رسالتها وضعتها في مظروف وكتبت عليه العنوان ثم وضعته في جيب بنطلونها لتضعها في البريد في طريقها الى الشاطىء بعد الظهر.

وقفت ساندي تمتع نظرها بالقلعة العظيمة، من نافذتها. حجارتها الرمادية تلمع في ضوء الشمس. خلفها تنساب المياه تتلألأ عند مصب النهر بهدوء. تذكرت حلم ليلة الأمس. تساءلت هل يوجد سجن في قبو الحصن؟ نظرت الى ساعتها تستطلع الوقت. سيبقى ديرميد نائماً نصف ساعة اخرى على الأقل. هذا الوقت يكفيها لتذهب الى الحصن وتلقي نظرة فاحصة عن كثب. ربما تتعرّف الى اماكن التنقيب التي بدأ يستكشفها كافن في حفرياته التنقيبية.

خلال دقائق كانت تمشي الى الحصن عبر ممر ضيق بين صفي حجارة تغطيها الزهور الملونة تطير فوقها جماعة من النحل تمتص رحيق الازهار. رائحة الزهور ذكية والهواء دافىء هادىء وصوت خرير المياه ينساب الى الشاطىء البعيد، كل ذلك اجتمع ليعطي جواً آخر من عالم قديم. كانت ساندي تمضي وحدها كأنّها تدخل الى عالم الماضي.

تعاظم هذا الشعور لديها لمّا وجدت الممر انتهى فجأة وظهر امامها منحدر مغطى بالعشب الأخضر انتهى في فجوة دائرية حول الحصن ثم بدأ يرتفع الى هضبة صغيرة بني فوقها الحصن. الفجوة هي الخندق المائي الذي يلف الحصن قديماً. ركضت ساندي الى اسفل الفجوة ثم صعدت الى الجهة الثانية، الى الحصن. فوقها مباشرة حجارة البرج الرمادية ارتفعت عامودية منبسطة، وفوقها سطح الحصن ذو الفتحات التي تطلق منها النار وقت القتال. حجارتها خشنة وصلبة تتحدّى السماء الزرقاء فوقها.

مشت ساندي الى الأمام. دارت خلف الحصن فوجدت باباً مزدوجاً في الحائط الشرقي. يوصل هذا الباب الى طريق جانبية تؤدي الى جسر

خشبي يرتفع فوق الفجوة، خندق الماء، ثم تنعطف الى غابة صغيرة تؤدي الى الطريق العام.

كان احد البابين المزدوجين منفرجاً قليلاً. اقتربت ساندي ومدّت رأسها مستطلعة. انتابها شعور بأنها دخلت القرون الوسطى للحظة، ثم اختفت. وجدت نفسها داخل ساحة مربعة مليئة بالسيارات القديمة. كان هناك سيارة رولز رويس زرقاء، لماعة، يعود موديلها لعام ١٩١٠. قربها سيارة سبور بنتلي خضراء موديلها عام ١٩٣٠ مقاعدها جلدية سوداء ويلفها شريط خارجي اسود. وهناك أيضاً سيارة اوستن سبعة صغيرة جداً ولكنها عريضة قليلاً. عرفت ساندي ان هذه السيارات تخص كروفورد. أجالت بعد ذلك نظرها في الغرفة فوجدت موقداً حجرياً كبيراً في وسط الحائط. وبعد مراجعة معلوماتها التاريخية قررت ساندي أن هذه الغرفة كانت مطبخاً في حصن من حصون العصور الوسطى.

يوجد في زاوية الغرفة المربعة سلماً دائرياً مبنياً في الحائط. تسلقت السلالم اللولبية الحجرية بتأنٍ. لاحظت كيف كانت محورة في منتصفها من كثرة ما مشى عليها بقوة جنود اشداء.

وصلت بها السلالم الى غرفة كبيرة فارغة. سقف الغرفة عارضات خشبية مائلة. كانت الشمس تدخل الغرفة من فتحات صغيرة هي نوافذ بدون زجاج. مشت ساندي ببطء وكانت تتحقق من موقع اقدامها خوفاً من أن تكون الأرض الخشبية مهترئة. اقتربت من النافذة ونظرت الى أسفل حيث مياه النهر تلمع عند المصب. انقشع الضباب ظهراً وتراءت لها تلال انكلترا من مسافات بعيدة.

أعادت تفحصها في داخل الغرفة. لا بد أنها القاعة الكبرى في الحصن. هنا تجتمع العائلة للطعام. تخيّلت طاولة كبيرة عليها أباريق خزفية أو معدنية وقربها مناسف الطعام المدورة مليئة باللحوم. النساء يرتدين الثياب الفضفاضة الطويلة. الرجال يلفون رؤوسهم بما يشبه الخمار. يلبسون ستراتهم الجلدية الطويلة والضيقة، بدون أكمام مع سراويل ضيقة. أمكنها ان تتخيّل كلاب الصيد منبطحة، ممددة تحت الطاولة تنتظر العظام.

رجعت الى السلالم، أكملت صعودها الى الطابق الثاني. وجدت نفسها في العراء على السطح. سقف الحصن قد اختفى منذ امد بعيد وما بقي

سوى غرفتين. عرفت ذلك من المدفأتين الموجودتين في الحائط الشمالي.

نظرت الى ساعتها من جديد. وجدت ان عليها العودة الى المنزل. نزلت الى الطابق السفلي بتأنٍ. لم تلاحظ وجود قبو أو سجن في الحصن. لا بد ان تعود الى هنا مرة ثانية لتكمل جولتها في الحصن وتكتشف بقية اجزائه.

لفت حول السيارات الثلاث واقتربت لتفتح الباب الخارجي. تذكرت أنها تركته مفتوحاً خلفها. هل من المعقول ان تكون قد اغلقته بدون ان تشعر؟ لم تعد تذكر. جربت فتح الباب. لم يفتح لأنه قد اقفل بمفتاح. يا لدهشتها. احدهم اقفله حين كانت تتفرج على الحصن في الطوابق العليا.

يجب عليها أن تتصرّف بسرعة والا ستبقى سجينة الحصن بقية يومها أو ربما حتى ليلها ايضاً صعدت السلالم مسرعة الى الطابق الاول. قطعت الحائط الشمالي ومدت رأسها من فتحة النافذة. هناك احد يمشي مبتعداً عن الحصن وقد خرج لتوه من الفجوة. عليها ان تصرخ لتسترعي انتباهه. مدّت جسمها فوق الحجارة وجعلت من يديها بوقا امام فمها وصرخت بأعلى ما يمكنها.

«يا هذا... أنت، عد الى هنا! لقد أغلقت عليّ الباب!».

تسمّر الرجل لمّا سمع النداء. لأول وهلة ظن أن ما سمع وهماً. عاود مشيه مبتعداً. أعادت ساندي الصراخ وأردفت بصفير شديد. التفت الشخص خلفه بعد ان توقف عن متابعة سيره وعاد هذه المرة أدراجه الى الحصن ثم نزل الخندق وصعد الى الجهة الثانية.

ولما اقترب من الحصن عرفت ساندي ان مخلصها هو فارس دانكريغان ليماند كالدويل. اقترب تحت النافذة ووضع يديه على زنديه ورفع رأسه الى اعلى لينظر اليها. كانت هي تطل من النافذة فوقه. صعقت لما رأته. مرت لحظة ظنت نفسها تعيش حلم ليلة الأمس.

«ماذا تفعلين هنا؟». سألها بسخرية.

كانت الشمس ترخي اشعتها على وجهه الأسمر وتحدد صلابة أنفه وفمه وحاجبيه وفكه. يلبس زياً رمادياً من الصوف الجيد مع قميص أبيض وربطة عنق. تذكرت انه كان في اجتماع مع اعضاء المجلس البلدي.

«امتع نظري فقط!». قالت بطريقة عجيبة تحاول ان تخفف من ذنبها.

فرحت لما لاحظته يبتسم من طريقة جوابها كأنها تسخر من سؤاله. اخفى ضحكته بسرعة ولكنها عرفت أنه يتمتع بروح نكتة ولكنه يخفي ذلك عن الجميع. ثم اكملت بصوت متوسل: «أرجوك، افتح لي الباب لأخرج».

حملق فيها كأنه يفكر قبل أن يجيبها الى طلبها.

«علي أن أبقيك سجينتي» احتجت زينا على وجهها الظريف ولكنه اكمل: «سأطعمك، وأجلب لك الحلويات واللحوم، والسمك الطازج. سأحمل لك احواض الفاكهة المنوعة وأباريق الشراب المعتق من الطاولة في داخل الحصن. سأجلبها في ظلمة الليل حتى لا يراني احد ولا يراك احد. حتى لا يعرف احد ان عندي ساحرة جميلة في الحصن سجينة. سنجلس نقتسم الطعام والشراب في ضوء الشموع وبعد ذلك...» توقف فجأة ونظر الى مجموعة مفاتيحه التي اخرجها من جيب سرواله ثم نظر الى اعلى مرة أخرى وقال: «سأخرجك» قال ذلك ببرود وبدون أي اكتراث.

مشت ساندي الى ناحية الباب بعد ان سحرها حلمه الذي شرحه لها. كيف لا وهي جميلة الحصن السجينة. عاشت لحظات مسحورة. نزلت السلم اللولبي وكانت تنظر الفتيات بالأثواب الفضفاضة ينحنين تحت قدميها. صدمتها الحقيقة لما وصلت الى اسفل السلم ووقع نظرها الى السيارات القديمة. فتح ايماند الباب. كان ينتظرها متوتر الوجه بدون اي ابتسامة. التقت عيناها الفزعتان بعينيه الخاليتين من أي تعبير. تحيرت كيف تغير وبهذه السرعة. قال:

«قدومك الى الحصن وحذاؤك وضغوطك السلالم المهترئة جنونه ثم أكمل والأرضية الخشبية فوق غير سليمة. ولو لم اسمع نداءك لبقيت في داخل الحصن الليل كله».

«لم أعرف انك ستعود لتغلق الباب! كان الباب مفتوحاً عندما دخلت. ظننت انه يبقى مفتوحاً دائماً». ثم فكرت في نفسها، لا عجب ان تجده مرنا غامضاً ولا تفهمه. منذ لحظة كان يحيك اجمل الاحلام والآن هو بارد كجلمود صخر.

«في الغالب يترك جوني الباب مفتوحاً حين حضر ليجلب بعض المعدات لاصلاح الجرار.

نحن نستعمل الطابق الارضي كمخزن للآليات وقطع الغيار

والموتورات. انا اقفل عليها لأن للسيارات بعض القيمة الاثرية على ما اعتقد».

«هذه السيارات تخص كروفورد! هل ستعطيها لابنه ديزميد؟».

نظر اليها نظرة ريب وتشكك وقال:

«هل حضرت الى الحصن لرؤيتها؟».

«كلا. لم اكن اعلم انها موجودة في داخل الحصن. اردت زيارة الحصن والتحقق من وجود سجن في القبو هناك. لكنني لم اعرف طريقي الى الطابق السفلي».

«الطريق اليه من هناك في الزاوية من باب يفتح من الأرض. هل تحبين رؤيته الآن؟».

«ليس الآن، شكراً. لا وقت لدي. ربما يكون ديزميد قد استفاق من نومه الآن وهو يسأل عني».

خرجت من باب الحصن مارة من امامه. خرجت الى شمس آب الدافئة ونورها الواضح. تبعها. اقفل الباب خلفه ثم نزلا الى الخندق وصعدا الى الجهة الأخرى باتجاه المنزل.

«ما سر اهتمامك بسجن الحصن؟».

«حلمت البارحة اني سجينة في الحصن» اجابته ثم اكملت «لكني شديدة الاهتمام بالحصن كله كأثر تاريخي. لقد اخبرني نان هذا الصباح ان والدك بدأ كتابة تاريخ حصن دانكريغان قبل موته».

«هل اهتمامك ينصب على الناحية التاريخية للحصن؟».

«نعم. انني احمل شهادة بكالوريوس في علم التاريخ. تخرجت لتوي من جامعة دولنستر.

تخصصت فيما يعرف بعصور ما قبل التاريخ. اي علم الآثار. وقد ساهمت عملياً في حفريات تنقيبية عن الآثار في مناطق عديدة من جنوب انكلترا».

كانا يمشيان الهوينا في اتجاه المدخل الرئيسي للقصر. النحل يطير حولها يمتص رحيق الزهور ويؤكد ان الدفء ملأ المكان. دفء لذيذ يشعر معه الانسان بالاسترخاء.

«ألا احد يراك ويتحدى رابطة الدم بينك وبين ابنة خالك مرتا؟» رغم

ليعاند هذه الملاحظة. رمقته ساندي بنظرة جانبية مستغربة ملاحظته وقالت:

«كلا لا أظن أحداً يلاحظ صلة الدم بيننا. فأنا أشبه والدي وهي تشبه والدها.

والد مرتا هو شقيق والدي ولكن جمال مرتا هو فريد في عائلتنا».

«لم أقصد الشكل الخارجي فأنا لا أهتم للشكل الخارجي. اعني التصرفات والاهتمامات والطباع».

«صحيح. كذلك أنت وشقيقك كروفورد تختلفان كثيراً في طباعكما وتصرفاتكما، هذا ما سمعته اثناء وجودي هنا، انتما توأمان وشكلكما مطابق لبعضكما. اذن ليس من المستغرب ان يختلف ابناء العمومة في الطباع والتصرفات».

«وماذا سمعت اثناء وجودك القصير هنا؟» تساءل بشك. فهمت ساندي انها بدون قصد قد داست على طرفه. شعرت كأنها لامست جرحاً عميقاً لديه. وكأنما قد وافقا مسبقاً على التوقف عن السير... توقفا يواجه احدهما الآخر. كانا قد وصلا الى الممر بين صفي الحجارة. اصبحا كأنهما في مرفأ من الزهور العطرة، معزولان عن العالم كله.

«سمعت ان كروفورد يختلف عنك كلياً». اجابته بسرعة كأنها ترفض ان ترهبها نظراته القاسية من عينيه السوداوين.

«هل هذا رأي ابنة خالك؟» قال بسخرية وتهكم «اظن انه كان يتنازل لها دائماً ويلبي لها جميع طلباتها. كانت تفعل ما تشاء بدون ان يردعها. هذه طباعة فهو يداهن ويتملق الجنس اللطيف بدون استثناء».

«وهل انت غير ذلك؟».

«افضل ان اكون البادىء في أي دعوة لأي علاقة مع الجنس اللطيف».

«اعلم ان مرتا طائشة قليلاً ومستهترة نوعاً ما ولكنني واثقة من انها احبت اخاك وابنه بصدق».

كانت تشرح له بحماس زائد بعد ان تذكرت مهماتها التي من اجلها استدعيت للعمل في دانكريغان

رفع حاجبيه السوداوين وتشنجت عضلات وجهه وظهر بريق في عينيه رأت ساندي طيبه قبل ان يبدي رأيه في ما قالته ساندي».

«هل تظنين ان الحب موجود؟ بالرغم من شهاداتك العلمية وقراءاتك التاريخية. هل تؤمنين بوجود هذه العاطفة؟».

اما هي فتجمدت قسماتها وبسرعة قالت:

«نعم انا اؤمن بعاطفة الحب. ان دراستي للتاريخ ساعدتني على ايماني بالحب».

ثم سألته: «وانت لا تؤمن به؟».

اجابها ببرود:

«في اعتقادي انها كلمة فارغة من المعاني تستعملها النساء للتغطية والتمويه عن اطماعهن الشخصية».

«اوه! كم انت مخيف، كثير الشك، غامض!» رمت كلماتها بدون حذر وقد نسيت وظيفتها الجديدة في التأثير عليه وتليينه... انت تعتقد ان مرتا تحب نفسها فقط عندما تزوجت اخاك وأنها كانت تعمل لمصلحتها الشخصية حين لجأت اليك مع ابنها».

ضمّ يديه الى صدره ونظر اليها كأنها طفلة تحتاج الارشاد وقال:

«أليس هذا هو الواقع؟».

«كلا. لم تحضر الى هنا الاّ بناء على رغبة اخيك حيث طلب اليها ان تحضر ديرميد ليعيش في كنف عائلته آل كالدويل».

«لهذا السبب تمدّد اقامتها ونرحب نحن بها؟».

لاحظت ساندي أنه يستفزها ليثير غضبها ويخرجها عن طورها لذلك لملمت نفسها وبدأت هجوماً معاكساً. سألته.

«وكيف تريدها أن تتصرف؟ هي هنا تنتظر منك مساعدة لابنها ديرميد. ألا يتوجب عليك ان تساعد أبن اخيك؟ هل تطلب الكثير؟».

«اذن هي تنتظر مبادرتي. هل تعرفين ماذا ترغب؟ من المؤسف ان مرتا لا تواجهني بنفسها أو تفصح عمّا يجول في عقلها وتستخدمك كمراسلة بيننا. ما هي بالتحديد طلباتها من أجل ديرميد؟».

«أنا... أنا اعتقد ان عليك ان تبحث الأمر معها هي». لملمت ساندي نفسها بعد أن وجدت نفسها مرة ثانية في موقف لا تحمد عليه واكملت: «لم تبحث مرتا هذا الأمر معك سابقاً».

هز رأسه نفياً وقال:

«كلّما حاولت التحدّث معها في امور تتعلق بالمستقبل، تستقبلني بفيض من الدموع وأنا لا وقت لدي لهذه التمثيليات». وهز كتفه كأن ذلك لا يعنيه.

تذكرت ساندي يوم طلبت اليها مرتا ان تكتشف لها نقطة ضعفه لأنها لم تنجح هي باكتشافها مع أنها جربت معه جميع اسلحتها الانثوية. كانت تستعمل طريقتها المعهودة بأن تمثل دور المرأة الرقيقة التي لا حول لها ولا طول، دور المرأة التي تنتمي الى الجنس الضعيف اللطيف الخ... كلّما باءت بالفشل. تعجبت ساندي وتساءلت: كيف تتوصّل هي الى حواسه الداخلية والى تحريك عواطفه الانسانية والى ما تحت درع الفارس! هل عنده شعور وأحاسيس مثل البشر أم هناك فراغ متحكم في داخله.

وصلت جلبة من الأصوات استرعت انتباهها. ظهر أمامها ديرميد تتبعه مرتا في الساحة أمام مدخل المنزل. كان شعرها الذهبي الأحمر كأنه شعلة ملتهبة أو هالة نور حول رأسها الجميل. وجهها الأبيض المشبع بالحمرة وانفها المروس في وسط وجهها ثم انفراج شفتيها الورديتين الممتلئتين المثيرتين. كانت تركض خلف ابنها.

«ها أنت يا ساندي. ديرميد يبحث عنك في كل مكان. عدت من كيركتون ولم أجدك». ثم نظرت ناحية ليماند واكملت: «مرحباً ليماند. أهلاً. لطيف منك أن تري ابنة عمتي الحصن والمزرعة». كانت مرتا تتصنّع اللطف والكياسة وهي تخاطب ليماند. تحاول اغواءه بشكل فاضح. شعرت ساندي باشمئزاز من تصرفات مرتا. تأكدت ساندي ان مرتا بعملها هذا تعطي ليماند الفرصة ليسخر منها ويرميها بملاحظاته الجارحة وينتقد تصرفاتها. نظر ليماند الى مرتا نظرة مخزية مشمئزة. لم تبال مرتا به بل كانت تركض ترنح فستانها الرقيق حول جسدها الملفوف البض. كان فستانها شفافاً من اللون الاخضر والابيض. فاجأ ساندي حين نظر اليها وغمزها بأحدى عينيه وهو يقول لمرتا:

«لكنني لم اكن أري ابنة عمتك الحصن، كنت اخلص فتاة الحصن الجميلة من السجن داخل الحصن... استأذنك لدي بعض الاعمال».

ترك ليماند مرتا وساندي أمام المنزل ودخل. دهشت مرتا وهي تواكبه بنظراتها وفمها منفرج قليلاً. ثم قالت:

«بالحقيقة لم أفهم ماذا قال. اليس هو غريب الاطوار؟ ماذا يعني بقوله يا ساندي؟».

وجدت ساندي نفسها تخفي ضحكة عريضة في داخلها ولم تدر بماذا تجيب مرتا. اسعفها ديرميد حين سأل كعادته:

«من هي فتاة الحصن الجميلة يا ساندي؟ هل اجد انا في الحصن فتاة جميلة مثل عمي ليماند؟».

«لا أظن ذلك» أجابته وصوتها متهدج «الفتيات الجميلات موجودات فقط في قصص الفرسان: مثل لوجريز أو قصص الفردوس المفقود».

«من هو الفارس؟».

«هو رجل يركب حصاناً ويقوم بالاعمال الحسنة، يخلص الفتيات الجميلات من التنين او من السجن».

«لكن عمي ليماند لا يركب الحصان». حاول ديرميد تصحيح معلومات ساندي.

«كان الانسان يركب الحصان في العصور القديمة أما اليوم فالانسان يركب السيارة او الطائرة...».

«حقاً يا ساندي أنت تفسرين أسوأ من ليماند عن جميلته سجينة القلعة. من سمع بفارس يركب سيارة او يطير بطائرة؟» قالت مرتا ذلك بعد ان عيل صبرها من كثرة اسئلة ابنها. تركته مع ساندي.

«ألم يكن كروفورد فارساً يوم تعرفت اليه أول مرة؟» سألت ساندي ابنة خالها مرتا.

لكن مرتا نظرت اليها نظرة استغراب وحيرة. ثم سأل ديرميد من جديد:

«أليس جوني فارساً؟ انه فارس يركب الموتوسيكل. لقد نزل مرة بدراجته بسرعة هكذا...». ويبدأ ديرميد يركض ويقلد صوت الدراجة باتجاه الطريق العام. صرخت مرتا:

«قف يا ديرميد» ثم نظرت الى ساندي وقالت لها بلهجة آمرة: «اجعليه يخفف ركضه. ربما تصدمه سيارة مسرعة. الحقي به بسرعة».

ركضت ساندي خلفه في محاولة الخبرة. توقف ديرميد قرب اشارة جانبية على مدخل المنزل الخارجي. توقف ينتظر ساندي ووالدته. ولما وصلا اليه

مشى الخليج الى الشاطىء. هناك التقى ديرميد لورنا وايوان. قامت ساندي لتشارك الاولاد لعبهم الا ان مرتا قالت:

«اتركيهم. لا خوف عليهم. لنجلس انا وانت نتحدث سوية».

جلستا قرب مقعد مربية آل لندسي ولكن المربية لم تعرهما اي انتباه.

«هي عجوز شمطاء اليس كذلك؟» كانت مرتا تتكلم عن المربية مع ساندي «لا تتكلم مع احد. لورنا وايوان مرحين ويتسجمان مع ديرميد. هل شاركتهم اللعب صباحاً يا ساندي؟».

«نعم» أجابتها ساندي ثم قالت: «هل يعيشون هنا؟».

«يأتون الى هنا في فصل الصيف فقط. والدهم بيل لندسي جراح يجبر الاعضاء ويقومها. هو يملك هذا المنزل الكبير هناك في الناحية الاخرى للخليج». تعرفت ساندي الى المنزل لانه يقع وحده على بقعة كبيرة من الارض في الطرف الآخر للخليج. مربع ومتين ومدهون باللون الابيض. تلف المنزل شجيرات خضراء تتجمع مع بعض وتحيط به حديقة كبيرة في نهايتها بعض درجات تصله بالشاطىء. أكملت مرتا:

«بيل هو نائب رئيس نادي اليخوت هذه السنة وقد تعرفت اليه يوم سهرت برفقة جولي هناك. يشترك كلانا باشياء واحدة: فهو ارمل وانا ارملة. لقد توفيت زوجته السنة الماضية. توفيت على أثر مرضها بابيضاض الدم أو اللوكيميا».

«اخبرتني نان عنه عندما ذكرت لها لورنا وايوان. عرفت من نان ان عائلة لندسي وعائلة كالدويل لم يكونا اصدقاء. تقول نان ان هناك خصومة بين العائلتين».

«ماذا تعرف نان عن هذه الخصومة؟» تساءلت مرتا. «وما رأيك بنان؟ اليست عجوزاً رجعية؟ انها تبالغ بالاهتمام بحروب وليحاند. في يوم سابق قرأت لي طالعي. تنبأت بأنني سأتزوج مرة ثانية من رجل يختلف كثيراً عن كروفورد. اتمنى ان تصدق تنبؤاتها بشأن الزواج».

انتهت مرتا من ثرثرتها.

اعترضت ساندي

«ولكن، لم يمض على وفاة زوجك كروفورد سوى أشهر قليلة. يجب ان لا تتسرعي».

«اعرف. لكنني لا ارغب في البقاء ارملة بقية حياتي.» قالت مرتا ذلك ونظرها باتجاه الاولاد الثلاثة الذين يلعبون في الرمال. ثم غيّرت مجرى الحديث وقالت: «اتعجب لماذا يبقي ليماند نان في ادارة منزله؟».

«من الصعب عليه ان يطردها من منزله بعد كل خدماتها السابقة. هي مربيته. لقد خدمت آل كالدويل عشرين عاماً».

«ولكن نان كانت تقوم بأعمال اخرى غير تدبير المنزل. لقد سمعت قصصاً عديدة تحاك حول علاقتها بكافين».

«ماذا تعنين بذلك؟».

«ها انت لا تفهمين من جديد». ضحكت مرتا واكملت «بالحقيقة يا ساندي لا أحد يفتك من الجيل الجديد المفروض ان يعرف كل شيء ولا يدهش اذا قامت علاقة غير شرعية او محرمة بين شخصين. في كل حال كافين كان رجلاً وسيماً وكذلك كانت نان في صباها. وهي تحمل دم آل كالدويل وتفهم طريقة حياتهم. ثم هل تعتقدين انه من الممكن ان تعيش معه في منزل واحد، كل هذه السنين بدون ان تحصل بينهما اي علاقة؟».

«نعم. من الممكن ان لا تحصل بينهما اي علاقة. ان الجاذبية الحسية ليست كل شيء في الحياة. انا أؤمن ان الرجل والمرأة يستطيعان ان يعيشا سوية في منزل واحد او يعملا في مكتب واحد او ورشة عمل واحدة بدون اي ارتباط حسي او عاطفي بينهما».

ورمقتها مرتا بنظرة ساخرة من طرف عينيها ثم قالت:

«وماذا تعرفين عن هذه العلاقة؟ ما هي خبرتك؟ انت تختلطين فقط بطلاب علم التاريخ. او اساتذة تهتم بالحفريات والتنقيب في الماضي الدفين. كذلك لم تعيشي في منزل واحد مع رجل مثير».

«لا اظن ان والدي او اخي توم يعتبران لها حساباً؟» علقت ساندي وهي تكشر تكشيرة شيطانية.

«انت تعرفين ذلك بالطبع». اكدت مرتا ثم سألتها: «الم تقابلي بعد رجلاً شعرت انك تحبين العيش معه وترغبين في زواجه؟».

فكرت ساندي بديريك سلون. هو الآن بعيد ينقب في جزيرة في البحر الابيض المتوسط. إنه زميلها في الدراسة.

«نعم التقيت احدهم».

«اخبريني عنه». امرتها مرتا وقد اكتسى وجهها بريقاً عجيباً لأنها ستشارك ابنة عمتها سرها وتكسب بذلك ثقتها.

«ليس عندي ما اقوله» ضحكت ساندي ثم تابعت «هو زميل جامعي درست واياه في الجامعة نفسها. تكلمنا كثيراً في علم الآثار. نتحمس اذا اكتشفنا قطعاً فخارية ونحن ننقب. كنت آمل ان اذهب واياه هذا الصيف في بعثة تنقيبية في منطقة البحر الابيض المتوسط ولكن طلبي رفض بينما قبل طلبه».

«ما اسوأ ذلك يا حبيبتي. لماذا لم تقبلي؟».

«كنت في لائحة طويلة ضمن الذين رفض طلبهم. العرض لديهم يفوق الطلب».

«هل تشتاقين اليه؟».

نظرت ساندي الى المياه المتلألئة في الخليج واحست حرارة الشمس تلفح وجهها وسمعت جلبة الاولاد يلعبون. تذكرت اسرار الماضي الدفينة تحت ارض دانكريغان قبل ان تتكلم:

«كلا. لا اظن انني اشتقت اليه بعد. ربما مع نهاية الصيف أتأكد من ذلك».

«اذاً هو ليس بالحب الحقيقي اذن».

«متى يكون الحب حقيقياً؟» سألتها ساندي وهي تضحك «هل تدق الاجراس وتفرقع المفرقعات؟ ماذا حصل لك لما قابلت كروفورد؟».

«لا أعرف. لم يترك لي كروفورد مجالاً لأكتشف الحب. التقينا في حفلة وقبل نهايتها تقدم يطلب يدي للزواج. كان دائماً متسرعاً يتبع اهواءه. كلما اعجبه شيء كان يصر على اقتنائه».

«وهل كنت انت ذلك الشيء احبه؟».

«هو كذلك! اليس هذا صحيحاً؟ لكن الامر قد انتهى كلياً الآن!»

«ماذا تقصدين، ان الامر قد انتهى؟» سألتها ساندي في صوت خافت بعدان صدمت من حقيقة تغير عواطف ابنة خالها بهذه السرعة. ثم استفسرتها «الا تشتاقين الى كروفورد وتحسين بالفراغ لفقدانه؟».

«كلا. لا اشتاقه بعد اليوم. اظن ان تنبؤات نان ستتحقق. لقد وجدت شخصاً مختلفاً عن كروفورد هنا. ولهذا سأبقى. انه متعقل ولا يتهور مثل

كروفورد. كثير التفكير والحيطة، متأن وحذر. علي ان اقنعه ان الزواج هو الصواب لكلينا. اقناعه يحتاج للوقت. ربما سيأخذ ذلك مني فترة الصيف».

كانت مرتا تتكلم ببطء وجدية على غير عادتها. شعرها الاحمر الذهبي تدلّت خصلاته الى الأمام وعلى وجهها حين مالت برأسها الى أسفل. التقطت بيدها خشبة صغيرة ورسمت على الرمال حرف «ل». حدقت ساندي في الرمال. ولما تبينت بوضوح الحرف سرت قشعريرة في جسمها واجفلت. ان حرف (ل) يعود الى ليماند. وحسب رأي نان ليماند يختلف كثيراً عن كروفورد في كل شيء ما عدا الشكل الخارجي. ارادت ساندي ان تستوضح الاسم الكامل للحرف ولكن ابنة خالها كانت مشغولة بالاولاد. لقد استرعى انتباهها صراخ الابتهاج الصادر عن لورنا وايوان. ركض الولدان عبر الرمال باتجاه شخص قادم نحوهما. كان طويلاً وشعره احمر. قدم من المنزل الكبير وتصحبه سيدة طويلة ترتدي ثياباً أنيقة جداً.

«هذا هو بيل لندسي» قالت مرتا تخاطب ساندي «ومعه اخته هيلين هي طبيبة وصلت لتوها من اميركا الجنوبية حيث كانت تعمل مع مؤسسة الأمم المتحدة. اود ان تتعرفي الى بيل. اظنك ستحبينه. وانا اود التعرف الى اخته هيلين».

راقبت ساندي الرجل الطويل يرفع لورنا بين يديه ثم يمد بعد ذلك يده الى ايوان. وعلى بعد مسافة قصيرة وقف ديرميد ذليلاً وقد اكتسى وجهه بالحزن. مسكين ديرميد الصغير. في مثل هذه الظروف يفتقد فيها الصغير والده وحبه وحنانه. لاحظ بيل لندسي وجود ديرميد. ضحك له وناداه:

«اهلاً يا ديرميد. اين الماما؟».

وعلى الفور تألق وجهه الصغير بالفرح واشار بمجرفته الخشبية الى ناحية مرتا. وللفور توجه بيل والاولاد الى مجلس مرتا وساندي. بقيت هيلين تتبع الركب ببطء. كان وجه بيل صبوحاً مرحاً طبيعياً كما انه يمتلىء بالنمش.

«اهلاً يا مرتا. أراك تستفيدين من وجود الشمس ما استطعت».

«الشمس جميلة! أليس كذلك؟» كانت مرتا تتكلم وهي تضحك «أظن ان الشمس جاءتنا من الجنوب مع ابنة عمي ساندي التي حضرت لتبقى معي في دانكريغان».

تبادلت ساندي التحيات الشكلية مع بيل. اما هيلين فنظرت الى مرتا بدهشة ثم سألتها بترفع:

«دانكريغان؟ قلت انك تعيشين في دانكريغان!».

«نعم. انا مرتا كالدويل، اعيش مع شقيق زوجي ليماند هناك».

«مرتا هي ارملة كروفورد». شرح بيل لاخته بهدوء.

وعلى الفور اكتسى وجه هيلين كآبة. لم تحيِّ مرتا بل نظرت الى شقيقها:

«علينا ان نعود الى المنزل. -والدتي تنتظرنا لترى الاولاد!».

دارت هيلين على أعقابها ومشت عائدة الى المنزل وتركت خلفها صمتاً غريباً ودهشة. مشت بلياقة فطرية ورأس مرفوع وكتفين مشدودتين. أما بيل فقد ارتبك ولم يعرف كيف يعتذر. قال:

«هيلين تشعر كالسمكة خارج الماء. هي لا ترغب برؤية هذا المكان بعد ان تغير كثيراً بعد مغادرتها اياه منذ خمس سنين. اعذريني. عليّ الرجوع بالاولاد الى المنزل. سأراك في نادي اليخوت. انتظرك هناك يا مرتا».

«سوف أكون هناك بانتظارك».

مشى بيل الى المنزل مع ولديه. كانا يقفزان حوله مرحاً. نظرت مرتا الى ساندي وعلى وجهها ابتسامة مزيفة. قلبت مرتا شفتيها امتعاضاً وهزت كتفيها النحيلتين اشارة لعدم الاكتراث.

ثم قالت:

«ما هذا الصداع!».

حاولت مرتا ان تجد لتصرفات هيلين مبرراً. شعرت ساندي ان قطرات الدموع ترقرقت في عيني مرتا من شدة تأثرها. تابعت مرتا قولها: «لم تحبني! لم اعجبها! ما هو السبب يا ترى؟».

«ربما لان اسمك كالدويل وربما هي تعتبر ان الخصومة بين العائلتين ما زالت قائمة».

«ربما ذلك».

مشت مرتا صامتة في عودتها الى دانكريغان. لقد جرحت كرامتها من تصرفات هيلين لتدسي لها. كان صدّها واضحاً للعيان ولم يخف على ساندي.

٣- القمر شاهد الأحاديث

بقي الطقس مشمساً لعدّة أيام. اعتادت ساندي ان تذهب برفقة ديرميد يومياً الى الشاطىء قبل الظهر وبعده. ساعدت كذلك ديرميد في بعض دروس أولية في السباحة له ولصديقيه الصغيرين، لورنا وأيوان.

أمضت مرتا كذلك، معظم وقتها مع الأولاد على الشاطىء. لم تشاركهم اللعب كما تفعل ساندي ولكنها كانت تمضي الوقت تثرثر مع الاصحاب الذين تعرفت اليهم. أكثر من مرة، حضر بيل لتدسي الى الشاطىء بعد ان ينهي عمله اليومي. كان يشاركها مقعدها حيث تجلس على الشاطىء تستمتع بحرارة الشمس وتكتسب سمرة محببة. لم تحضر هيلين ولا مرة معه، ولم يأت بيل على ذكرها.

كانت ساندي تذهب من وقت لآخر الى كريغان وهي قرية صغيرة تقع على شاطىء النهر خلف المنزل من الناحية الثانية للتلة التي يقع الحصن فوقها. أحياناً تذهب برفقة جوني على دراجته.

قرية كريغان ميناء لصيد الاسماك، القرية صغيرة وهي مركز صغير للملاحة ومنتجع صيفي. رممت معظم أبنيتها لتصبح صالحة للسكن ومعظم بيوتها تقع على جوانب مصب النهر حيث تعكس المياه زرقة السماء وخضرة التلال على ضفتي النهر. كانت الرحلة الى كريغان تسرها.

وقت المد ترى المراكب الشراعية متجمعة عند المصب تحتمي. أشرعتها مختلفة الالوان والاعلام مشرعة تحت أشعة الشمس يداعبها النسيم فترفرف بسلام. وحين الجزر تتضاءل مياه النهر فيصبح كساقية رفيعة تشبه في شكلها الحية الزرقاء. يظهر الطمي على ضفتي النهر فيتغير لونه من

الاصفر الذهبي الى البرونزي ثم البني الغامق حسب ما تعكس السماء.

التقت ساندي رون كارسون في كريغان. هو أكبر منها بقليل. عيناه زرقاوان وطبيعته ضاحكة مرحة يعمل مهندساً معمارياً وشريكاً لوالده في عمله. غالباً ما يصحب رون ساندي وجوني للنزهات البحرية في مصب النهر في مركبه الشراعي. لقد أمضت ساندي أول أحد لها في دانكريغان في هذه القرية.

صحت ساندي يوماً باكراً لتجد ان الاسبوعين قد شارفا على الانتهاء. شعرت بوخز الضمير وهي تتذكر انها للآن لم تتوصل الى اي نتيجة في مهمتها الموكلة اليها. لم تتوصل لمساعدة مرتا في اقناع ليماند كي يتكفل بتعليم ديرميد... وكذلك لم تعرف أي شيء بعد عن تاريخ دانكريغان. كل ما فعلته انها امضت عطلة ممتعة كانت تسرح وتمرح على حساب شقيق زوج ابنة خالها. قفزت من فراشها يخالجها شعور بالذنب.

الساعة السادسة صباحاً. ستجد ليماند يتناول فطوره في المطبخ قبل ان يبدأ يومه بالعمل في أملاكه. انه مراوغ كبير ويعرف كيف يتملص من وعوده. انها تلتقيه دائماً وقت الطعام ولكنه لم يحدثها بشأن ديرميد ابداً. كان يتناول طعامه صامتاً ثم يعتذر ليذهب الى مكتبه حيث ينكب على أكداس الورق أمامه، أو يخرج الى مراقبة مشروع جديد ينفذ في املاكه. صمته وتحفظه، ايضاً، لم يسهّلا على مرتا مهمتها في اجتذابه والتأثير عليه، كي يقدم لابنها المساعدات أو... لبست بنطلونها الجينز وتذكرت حرف (ل) الذي رسمته مرتا فوق الرمال. عبست. هل صحيح ان مرتا ترغب في الاستقرار في دانكريغان وتحاول اجتذاب ليماند؟ هل هو غايتها لتتزوج به؟ كانت تلاحظهما سوية. كان ليماند يشمئز من حركات مرتا الوقحة لاجتذابه. هو غريب الاطوار ولا يمكن لاحد أن يقرأ ما يجول تحت القناع الذي يلف به وجهه الجميل. لا أحد يستطيع معرفة ما يرى في عينيه السوداوين. نظراته مبهمة وباردة. دائماً ينقل بصره بينهما هي ومرتا متفحصاً ويستخلص لنفسه ما يشاء عنهما.

مشطت ساندي شعرها بالفرشاة. نظرت في المرآة لتطمئن الى شكلها. انها جميلة وخدّاها ورديان فمها واسع قليلاً مع امتلاء في شفتيها. أنفها مروس وعيناها رماديتان. قفزت من غرفتها الى الدرج. كانت الساعة

القديمة تشير الى السادسة والنصف صباحاً.
دخلت المطبخ. سرت لأن ليماند ما زال هناك يجلس لوحده. أمامه الشاي ويطالع مجلة وهو عابس. نظرت ساندي حولها. لم تر نان. جوني ما زال يحلب البقرات. ان فارس دانكريغان لها وحدها الآن. دقت ساعة العمل.

«صباح الخير». سلمت عليه مبتسمة. لم تقرر بعد بماذا تناديه. «انه يوم آخر جميل».

«صباح الخير».

ثم عاد لمجلته يطالعها وهو يشرب الشاي.

لم تستغرب برودته في استقبالها. لقد اعتادت ذلك منه. صبت لنفسها بعض الطعام. صدمتها الفوضى الكبيرة التي عمت المطبخ هذا الصباح. لم يكن غطاء الطاولة عليها. كان عليها ان تفتش لتجد لنفسها فنجاناً او ملعقة. من الواضح ان نان غير موجودة.

«أين نان؟».

«انها مريضة. طلبت اليها ان ترتاح اليوم في فراشها، عليك ان تديري طعامك بنفسك اليوم. حان الوقت لك ولابنة خالك أن تكتشفا ان هذا المنزل ليس فندقاً او مدرسة داخلية».

استغربت ساندي هجومه غير المنتظر. رفضت الوضع. انه متحامل عليها. قررت أن تبقى هادئة من أجل اهدافها البعيدة معه.

«أعرف انه ليس نزلاً ولا فندقاً. أنا أساعد نان قدر المستطاع. هل أستطيع اليوم أن أقوم بأعمالها في غيابها؟».

نظر اليها بطرف عين. مال كرسيه الى الوراء وقال:

«أشك بقدرتك على ذلك!».

«هل تظن أن لا حول لي ولا قوة؟».

تبسم من اجابتها واضفت عليه البسمة جاذبية لا تقاوم. اجابها:

«اوه! كلا! أنا لست متأكداً. يصعب عليّ ان ارى جامعية متخصصة في علم التاريخ تعرف أيضاً ادارة منزل في حجم منزلنا. حتى نان تجد صعوبة في الاعمال المنزلية الكثيرة، وهي تقوم بهذا العمل منذ عشرين سنة. لا أرغب في مس شعورك ولكن جهدك لا يحتمل تحضير الغداء والعشاء لـ

جميعاً، تنظيف المنزل والغسيل والترتيب ثم القيام بأعمال المزرعة الموكلة الى نان...».

كان يكلمها بكبرياء وغطرسة ولا يترك فرصة للسخرية منها ومن مرتا وجهلها التدبير المنزلي.

«أنت تجهل كلياً ما أستطيع ان افعل. سأقوم بكل اعمال نان اليومية وأكثر وسأبرهن لك ذلك منذ الآن».

حملق فيها ليماند بعينيه السوداوين. لا تعابير فيهما. نظر الى فنجانه الفارغ. كتم ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه شعرت بها ساندي. هل هو يضحك منها؟ ماذا ستفعل ان ضحك عليها!

«اذن. لقد صممت على ادارة اعمال المنزل اليوم. أقبل تحديك. برهني لي انك تستطيعين القيام بذلك».

دهشت من موقفه وتراجعت قليلاً الى الوراء ثم قالت:

«لدي شرط واحد. أريد ان تسمح لي رؤية مخطوطات والدك التي كتبها في تاريخ دانكريغان. اخبرتني نان انها في المكتبة. أريد أن تأذن لي بدخول المكتبة للاطلاع عليها».

«كان عليّ ان اعرف انك لن تقومي بالعمل بدون مقابل». قال ساخراً ثم حدّق بها لحظة. لقد فاجأه طلبها. ثم تابع «ما اغرب ما تطلبين؟ يمكنك رؤيتها ولكنني احذرك ان الفوضى تعم المكتبة. والدي لم يسمح لأحد بدخولها وكذلك لم اهتم انا ابداً بترتيبها بعده».

«هل لديك فكرة. أين أجد المخطوطات؟».

«ربما في جوارير المكتب» قال ذلك ووقف لفوره. كانت ابتسامة ساخرة تلف وجهه وهو ينظر اليها متعجباً. «اتفقنا اذن: مقابل دخولك المكتبة وقراءة المخطوطات ستطبخين لنا الغداء والعشاء وتنظفين الصحون والمنزل وتغسلين وتقومين بأعمال نان في المزرعة».

هزت رأسها موافقة. خرج بدون ان يزيد كلمة اخرى. نظرت حولها في المطبخ. هالها قدم الادوات النحاسية فيه. لا توجد اي تسهيلات كهربائية مما تجده في مطبخ والدتها. تحققت بذاتها المهمة الصعبة التي ألقت بنفسها فيها. لقد وقعت في الفخ الذي نصبه لها ليماند ولهذا السبب وافق سريعاً على شرطها. الآن هو يضحك عليها وعلى سذاجتها.

غضبت مما وصلت اليه. صعدت لتتفقد نان، فوجدتها مريضة طريحة الفراش. وجهها شاحب ودوائر سوداء تلف عينيها.

«انه الصداع. ينتابني دورياً وعليّ ان استريح في الفراش».

«لا عليك. لا تهتمي. سأقوم باعمالك عنك. سأطبخ وأغسل وأفعل كل ما تفعلينه. هل يمكنك مساعدتي وارشادي؟ ماذا رتبت من طعام للغداء؟».

اخبرتها نان عن اللحم والخضار للغداء وكذلك للعشاء ثم الشاي في الساعة الخامسة.

طلبت اليها تجميع البيض من قن الدجاج وتعليبه للشحن لليوم التالي.

«جميل منك يا صغيرتي ان تساعدي. انا اشكرك وكذلك سيشكرك ليماند».

فكرت ساندي بكلامها ثم ذهبت الى غرفة مرتا وأخبرتها بكل ما حصل.

«يا ساندي. لقد وقعت في الفخ. لماذا حصل كل ذلك اليوم؟ انني مدعوة بعد الظهر الى نادي الغولف لالعب ايرلنز في نادي كيركتون. لماذا تخذليني؟ دعوتك الى دانكريغان لمثل هذه الظروف حيث اخرج ولا يشتغل بالي على ديرميد، لا يتوجب عليك القيام بأعمال نان هنا. يستطيع الشباب تدبير أمورهم لوحدهم في مثل هذه الظروف».

«اظنهم يستطيعون». تمتمت ساندي وهي ما تزال تتألم من معاملة ليماند لها. لا بد وأنه يراها فتاة ساذجة بسيطة من السهل خداعها واستغلالها. ثم اكملت حديثها مع مرتا «لا أستطيع أن أتراجع الآن. ربما يرسلني ليماند الى بلدي ان لم افعل ما وعدت به. في أي حال، العمل ليس كثيراً. هو ليوم واحد فقط. ثم ان مساعدتي في تأمين العمل يعطيني شعوراً باني لست عالة عليه».

«هل ما زلت تشعرين بتأنيب الضمير؟».

«نعم. ماذا لو تطبخين انت الطعام؟ ربما يجعلك هذا تلفتين نظره اليك».

«أنا! أنا أطبخ في هذا المطبخ العتيق؟ أوه. كلا يا ساندي. أنت وعدت بذلك وأنت تنفذين. افضل ان ألفت نظره اليّ بطريقة ثانية...»

ضحكت مرتا ضحكة مبطنة ثم اكملت «وعليك مباشرة الطبخ الآن والا فلن ينضج الطعام في الثانية عشرة والنصف، موعد الغداء».

استغرق الطبخ الوقت كله. بالاضافة الى أعمالها المتراكمة كان على ساندي ان ترد على الهاتف بين الحين والآخر مما زاد من اعبائها. تمنت لو بقي لديها المزيد من الوقت لترتيب الطاولة بطريقة أجمل ولترتيب نفسها كذلك. قدمت الطعام في وقته لكن اللحم ما زال قاسياً ويحتاج للمزيد من الاستواء كذلك حلو المرملاد ما زال طرياً في الوسط ويلزمه المزيد من الطهو. أكل الرجال بدون تذمر. شكرها جوني وقال انه تمتع بطعام شهي وتمنى عليها أن تطبخ لهم مرة ثانية خلال اقامتها في دانكريغان.

شعر ديرميد بأنه مهمل من الجميع. لم ينتبه اليه احد. ساندي مشغولة عنه باعمالها. بدأ يضرب بملعقته صحنه يريد المزيد من الحلوى. نظرت اليه مرتا وطلبت منه ان يصمت. كانت هي مشغولة عنه بالحديث مع ليماند لعلها تجذبه اليها او تؤثر فيه. لم يرد ديرميد على طلبها بل بدأ يصرخ بصوت عال. نظر اليه ليماند وأمره ان يصمت والا يطرده من المطبخ. ذهل ديرميد من الاوامر التي اصدرها اليه عمه. سكت قليلاً وحدّق فيه ولكن ليماند لم يعره انتباهه. امسك ديرميد بملعقته ورمى بها عمه وصرخ:

«عمي المرعب. عمي المخيف. أنا اكرهك. لا اعتقد انك فارس. انك عمي المرعب».

وقعت الملعقة ارضاً ولم تصب ليماند. ساد الصمت. حدق الجميع عندئذ بديرميد. لقد نجح في لفت الانظار اليه. حدق بهم ثم انفجر باكياً ومولولاً.

«خذيه الى غرفته يا مرتا. لا تجلبيه الى الطعام معنا الا اذا كنت واثقة من حسن تصرفه». كان صوت ليماند آمراً. مشت مرتا بدون معارضة لأن ساندي اشارت اليها ان تطيعه.

حملت مرتا ابنها وهو يلبط ويرفض ويصرخ صراخاً حاداً. صرخ ليماند:

«اهدأ والا ضربتك؟».

سكت ديرميد للحال وكف عن العراك. حملته مرتا واستأذنت وهي تقول:

وليماند. انه لا يقصد سوءاً. هو طفل صغير بريء».

«أعرف ذلك. لكن عليه ان يتعلم كيف يتصرّف منذ الآن. هو من آل كالدويل صعب المراس. عليك ان تكوني شديدة في تربيته والاّ سيصبح مجرماً».

حاولت مرتا ان تعترض ولكن ليماند نظر اليها نظرة صارمة. تنهدت وخرجت مع ابنها من الغرفة وبعد دقائق خرج ايضاً ليماند وجوني من المطبخ. نظفت ساندي الصحون الوسخة ورتبت المطبخ. صعدت الى غرفة ابنة خالها لتواسيها. كانت واثقة انها تبكي لوحدها. مرّت بطريقها الى غرفة ديرميد وتأكدت انه نائم وقت القيلولة. دخلت غرفة مرتا فوجدتها تجلس على حافة السرير وبيدها منديلها تمسح به دموعها من على خديها. رأتها مرتا فسارعت الى القول:

«يا ساندي. ماذا أفعل؟ الاسبوع الماضي كان ديرميد حسن التصرف بعد حضورك ظننت انه انتهى من نوبات الغضب التي تنتابه. انظري كيف تصرف اليوم. لقد بدأ ليماند يبدي اهتمامه بي ويتحدث الي ولم يعد يهملني كالسابق. اشعر انني عدت الى البداية معه».

«لا اوافقك الرأي. اظن اننا نعرف الآن سبب نوبات الغضب عند ديرميد».

«كيف تعرف! لماذا يفعل ذلك؟ ما هي الاسباب؟» سألتها مرتا بعد ان مسحت دموعها ونظفت أنفها بمنديلها.

«انه يكره ان يسترعي انتباهك احد وخصوصاً ليماند. انا كنت مشغولة عنه ولم استطع ان اعيره انتباهي لانشغالي باعمال المنزل».

«اظنك على صواب. ولكن متى اتكلم مع ليماند؟ انا لا أراه الاّ وقت الطعام. لم اصل بعد الى اي نتيجة معه بشأن ديرميد. هل استطعت انت؟».

«لا. تكلمت معه فقط يوم وصلت وقد اخبرتك ما دار بيننا. مرتا، ربما انت تضيعين وقتك ببقائك هنا».

«ارجوك لا تبدأي حديثك مرة ثانية في هذا الموضوع. يجب عليه ان يساعد ديرميد. الولد يحتاج لأب». ولم تستطع اكمال جملتها لأنها غصّت بدموعها من جديد.

«بكاؤك لن يفيد. كفي عن البكاء قبل ان تشوهي جمالك وتظهر آثار البكاء على عينيك . . . عليك ان تخرجي بعد الظهر. متى ستذهبين؟» طيبت ساندي خاطرها. لاقت كلمات ساندي اذناً صاغية عند مرتا فتوقفت عن البكاء وتبسمت من وسط الدموع. كأن الشمس ظهرت بعد المطر.

«هل تقصدين انك سترعين ديرميد اثناء غيابي؟».

«بالتأكيد. لا اظن اعتنائي به يثقل كاهلي بالاضافة الى اعمالي الاخرى».

«شكراً يا عزيزتي. اقدر لك جميلك. نزلت مرتا عن فراشها وقالت: ماذا سالبس؟ سيمر آل ايرفنز عليّ بعد ربع ساعة. ليس لدي الوقت الكافي لاجهز نفسي للخروج».

خرجت مرتا الى نادي الغولف. اكملت ساندي ترتيب المنزل وتنشيف الصحون ثم كنست الأرض ومسحتها قبل ان يستفيق ديرميد من نومه. ولمّا ناداها ديرميد حملته من غرفته ونزلت به الى المطبخ. كان جوني قد وصل لتوه. قال لها يطلب ودّها بابتسامة عريضة:

«علينا ان نجمع البيض الآن. سأساعدك في هذه المهمة».

اخذت ساندي ديرميد معها وساعدها في تجميع البيض. كسر عدداً منها من كثرة تشنجه وعصبيته. ما زال تحت تأثير مشكلته مع ليماند. فقد ثقته بنفسه. ظنّ انه سيعاقب على اي خطأ يبدر عنه. طمأنته ساندي واعطته بعضاً من لعبه يتسلى بها بينما اكملت هي توضيب البيض في علبه من أجل شحنه في اليوم التالي. رنّ جرس الهاتف. كانت مرتا تضحك وهي تخبرها أنها مدعوة لتمضية السهرة خارج المنزل وتطلب منها الاعتناء بديرميد والاهتمام به لينام. اكدت لها ساندي انها ستفعل ما طلبته منها ثم اقفلت السماعة وعادت الى المطبخ. قررت اطعام ديرميد قبل موعد ليماند وصعدت به الى غرفته لينام. ولما حضر ليماند لم يكن العشاء جاهزاً. حاولت ساندي ان تشرح له الاسباب الاّ انه رمقها بنظرة ساخرة كعادته، لكنه لم يتكلم بل دخل الى مكتبه.

واخيراً جهز العشاء. حضر الجميع الى المطبخ واكلوا. كانت ساندي متعبة جداً.

ولما انتهت من حمام ديرميد وقص القصص عليه، نزلت الى المطبخ لتكمل غسيل الصحون، وجدت جوني قد سبقها الى الجلي.

«شكراً يا جوني انت ملاك من السماء».

«ليس كذلك. لقد شرح ليماند تفاصيل غسيل الصحون بعد ان اوكل الي هذه المهمة. هل ترافقيني الى كريغان بعد ان ننتهي».

«لا استطيع. مرتا خارج المنزل. عليّ البقاء مع ديرميد لأن نان مريضة ولا تستطيع رعايته، وأريد ان ادخل المكتبة وافتش فيها عن مخطوطات تاريخ دانكريغان. لقد سمح لي ليماند بذلك. هل تدلني اين المكتبة؟».

رافقها جوني عبر الممر وفتح باباً قرب السلم الداخلي. دخلا غرفة سقفها مرتفع، تكتنفها الظلمة. ادار جوني زراً كهربائياً ليزيل العتمة. هناك ثلاث نوافذ عريضة ستائرها داكنة. أزاحت ساندي الستائر وفتحت النوافذ ليدخل النور. للحال عمّ الغبار الاسود المكان، وتمزقت الستارة من اعلاها وتدلت من طرفها وبقيت معلقة ببعض الدوائر الخشبية التي تشدها الى السقف.

«فوضى كبيرة. اليس كذلك؟».

نظرت ساندي فاذا بها ترى صورتها معكوسة في مرآة كبيرة اطارها مطلي بالذهب معلقة فوق المدفأة الانيقة. الى جانبي المدفأة رفوف مليئة بالكتب. لا بد ان تكون هذه الغرفة قاعة الاستقبال الرسمية قبل ان يحوّلها كافن الى مكتبة يعود تاريخها الى القرن الثامن عشر.

«كيف يمكنهم ان يهملوا المكتبة بهذا الشكل؟» تعجبت ساندي وهي تتفحص الغرفة والكتب المبعثرة حولها هنا وهناك وفي كل مكان.

«الرجل العجوز كنت اناديه عم كافن: كان معتزلاً عن الجميع. يغلق على نفسه ويبقى هنا اياماً كاملة. كان يكتب تاريخ دانكريغان».

مشت ساندي الى المكتب حيث اكداس الاوراق. الى يمين المكتب صينية فضية عليها زجاجة شراب يحتوي على سائل اصفر. الى شمال المكتب في اطار من الفضة صورة زواج رجل في الاربعين. شعره أسود وعيناه سوداوان. يلبس بدلة ضابط حارس في الجيش الاسكوتلندي. قربه صبية في فستان زفاف ابيض تصغره بعشرين سنة تقريباً. شعرها أسود ولكن عينيها ملونتان وعلى فمها إبتسامة مرحة عابثة.

«ماذا حل به؟» لماذا اعتزل الناس؟ ألان زوجته ماتت؟».

«نعم. غرقت في مصب النهر».

«غرقت وهي تسبح؟».

«كلا. لم ار هذه الصورة قبل الآن. كانت جميلة جداً. أليس كذلك؟ كانت تصغره بعشرين سنة. أظن أن هناك بعض الحقائق للاشاعات التي راجت حولها».

«ما هذه الاشاعات؟ قل لي يا جوني». توسلت اليه ساندي وهي تشعر ان بعض الغموض بدأ يتكشف لها.

«يوم غرقت كانت في نزهة بحرية برفقة رجل على متن يخته. تقول الاشاعة انها كانت في سبيل الهروب معه الى ايرلندا فقلبت الرياح العاتية اليخت في مصب النهر، عند حدوث المد، ولم ينجوا، ووجدت الجثتان على الشاطىء...».

«اليس لديك شيء أفضل من أن تضجر ساندي بثرثرة محلية؟».

كان صوت ليماند وراءهما. التفتا بسرعة نحوه. الشعور بالذنب يلفهما. كان ليماند واقفاً في وسط الغرفة، عابساً، لم يكن راضياً عن سماعه المحادثة التي تناولت والديه.

«رغبت ساندي ان ترى المكتبة» قال جوني وقد أحس بالخجل من اخمص قدميه حتى قمة رأسه.

«نان ترغب في رؤيتك. انه الاجتماع الشهري للمنظمة الريفية اليوم. هي مريضة وترغب اليك ان تحمل اعتذارها عن الغياب بسبب المرض، مع وقائع الجلسة الاخيرة». قال ليماند يخاطب جوني بصوت هادىء ومتزن.

«حاضر. اعتذر منك يا ساندي فالواجب يدعوني». ضحك جوني ضحكة صفراوية بينما هو حزين لانه تركها وحدها تحت رحمة ليماند القاسي.

«لم نكن نثرثر. كنت أرغب في معرفة أسباب اعتزال والدك عن العالم وترك كل شيء هنا يتلف ويفسد تدريجياً. كان جوني يخبرني بالقصة الحزينة».

«لكنها لا تهمك بشيء».

«لا اوافقك الرأي. كل ما حصل في الماضي يهمني لانه يساعدني على فهم الحاضر».

«آه. نسيت. أنت متخصصة في علم التاريخ. تهتمين دائماً بالاسباب والنتائج».

قال ساخراً. نظر حوله في الغرفة وقال «لم أكن أعرف ان المكتبة على هذه الحالة المتردية. ربما علي ان احرقها جميعها: الاثاث، الكتب، الستائر...».

«اوه. لا. انه انتهاك للحرمات. الكتب والاثاث يمكن تنظيفها. بعضها له قيمة أثرية كبيرة».

«وهل تظنين ذلك؟ كيف يمكنني أن أعرف قيمتها؟».

«انا متأكدة مما أقول. لا بد أن احداً في متحف غلاسكو يستطيع تقييمها لك. اما المفروشات فأي شخص يعرف في الاثاث يساعدك في تقدير القيمة الاثرية للكراسي والمكتبة».

«ولكن. علينا اولاً تنظيفها قبل ان نسأل اي شخص».

«انا استطيع ان انظف الكتب وامسح الغبار عنها وارتبها».

«انت مجتهدة ومستعدة دائماً لتقديم الخدمات. لم اشكرك لمساعدتك اليوم! كان عملك افضل مما توقعت».

كان حديثه صادقاً. قالت ساندي في نفسها، لا تدعي مديحة يخدعك. ربما قد تصب لك فخاً آخر للمزيد من العمل المرهق. اجابته:

«شكراً. ربما اقتنعت الآن ان المرأة تستطيع ان تقوم بتدبير المنزل الذي هو حقلها منذ بدء الخليقة بالاضافة الى تسلحها بالعلم والمعرفة. فالشهادات الجامعية لا تعيقها في اداء اعمالها المنزلية».

كانت تكلمه برصانة مجابهة الند للند. نظرت الى وجهه، هناك دلائل انفعالات بادية عليه ولكن عينيه لا تفصحان عن شيء.

«انت لا تحبيني، اليس كذلك؟».

لم يكن لدى ساندي أي جواب حاضر. تذكرت مهمتها الدبلوماسية من اجل ديرميد. قالت مدافعة عن نفسها:

«انا لا اعرفك حق المعرفة».

«كم أنت حذقة. انت لا تحبيني فلا تخدعيني، انا في نظرك لا أحتمل، صلب، وكثير الشكوك».

«من قال لك ذلك؟ انا... اعتقد انك غير راض عني وعن مرتا».

«ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟».

«طريقتك في معاملتي، دائماً تسخر من تصرفاتي وافكاري كل ذلك يشير الى انك تحمل لي روح العداء وعدم الرضى».

«هذا غير صحيح... قولي لي ماذا كنت تنتظرين قبل مجيئك الى هنا؟ مغامرة عاطفية مع الشباب الاسكوتلندي؟».

«أوه!» تساءلت ساندي في نفسها. لماذا تجد نفسها تتحارب واياه بالسيوف كلما اجتمعت به، بينما العكس هو طلبها للتفاهم معه على مهمتها بشأن ديرميد. «لا تكن فظاً. انا لم انتظر شيئاً من هذا القبيل. أنا لست فتاة لا ترى في الرجل سوى...».

«سوى رجولته، اليست هذه هي الكلمة الشائعة. أكمل عنها جملتها. اخبريني اذن، كيف ترين الرجال من علياتك؟ هل ترينهم كما تراهم مرتا، مصدراً لتأمين المأكل والملبس، موطناً للحماية والتأمين ضد المصائب، كبش الفداء للتكفير عن اخطائك؟».

«كلا. كلا. انهم اناس. اتكلم مع احدهم في اشياء نشترك في اهتمامنا بها. نتباحث ونتبادل الرأي حولها، نتفاهم. اتمنى ان يراني كما أراه انساناً سوياً».

كانت ساندي تشرح رأيها بالرجل وقد ازعجها ما قاله عن مرتا. احست ساندي انه يتفحصها بعينيه السوداوين من اخمص قدميها لجذور شعرها. ثم قال:

«ربما يراك بعض الرجال هكذا!» تمتم وقد ظهر في عينيه وميض من الاعجاب بها، هذه المرة لمحت بريقاً في عينيه لم تره من قبل.

«لكنك لا تراني هكذا؟» سألته وقد شعرت بارتعاش من جراء نظراته تلك.

«ليس دائماً. انا شخصياً اتمتع بما تقدمه النساء من مميزات ولكنني لا اهتم بنظرية «تكافؤ الجنسين»».

«هذا واضح».

اجابته ساندي وقد شعرت بأنها هزمت في جولتها معه. ابتسم وهو يمشي

نحو المدفأة بطريقه الى خارج المكتبة.

«هل استطيع ان اتكلم معك بشأن ديرميد؟» سألته وهي تتبعه.

استدار بسرعة واجبرها على التوقف لأنها كانت ستصطدم به.

«هل هذا الموضوع من المصالح المشتركة؟ ماذا عن ديرميد؟»

سألها بتهكم. بدأت ساندي ترتعش قليلاً بعد ان وجدت نفسها قريبة جداً منه، خطت خطوة الى الوراء.

«ارجوك لا تسيء الظن به لسوء تصرفه على الغداء اليوم. لقد اختلط عليه الأمر. انه لا يجد فرقاً بينك وبين والده مما جعله مشوشاً».

«لماذا؟».

«انك تشبه والده كثيراً بالشكل ولكنك لا تتصرف معه على هذا الاساس- أي كوالده».

طوى ذراعيه على صدره. ضاقت عيناه السوداوان وهو يفكر:

«معقول». وافقها ثم ابتسم بعبث. رأت الشبه بينه وبين صورة والدته على المكتب.

«انه ليس الشخص الوحيد الذي يخلط بيني وبين كروفورد للشبه الكبير بيننا. كنا نلعب هذه اللعبة مراراً». اختفت البسمة وحل محلها العبوس.

«هل طلبت منك مرتا ان تتكلمي معي بشأنه... حتى لا اضربه؟».

«كلا. انها مهمومة بشأن نوبات غضبه. هي تعرف انه يحتاج لأب...» توقفت ساندي عن متابعة كلامها بعد ان رمقها بنظرة شك. ثم اردفت «هي ترغب ان يتربى هنا ويذهب الى المدرسة التي درست فيها انت وكروفورد. زوجها لم يترك لها اي مال. لها راتب تقاعدي ورثته عن والديها ولكنه لا يكفي لسد مصاريف تعليمه».

حدّق فيها كأنه يفكر ويزن ما قالته في عقله. ثم سألها ببرود:

«هل انت متأكدة ان هذا كل ما ترغب فيه مرتا؟».

«نعم». تذكرت حوارها مع ابنة خالها وحرف (ل) وفكرة زواجها مرة ثانية واكملت: «لا... انا لست واثقة».

«ظننت ذلك. هل لديك فكرة... اين هي هذا المساء؟».

«قالت انها مدعوة للسهرة. ذهبت لتلعب الغولف مع آل ايرفينز في كيركتون بعد الظهر».

«فهمت الآن لماذا طلبت اليك الحضور الى هنا لمساعدتها في رعاية ديرميد. لا انا ولا جوني ترضى ان نرعى الصغير في غيبتها وكذلك نان مشغولة معظم الاوقات. بدأت أتحقق من براعة ابنة خالك في التخطيط البعيد المدى. لديها خطط محكمة. اعتقد ان والدي كان يرحب بها. سأتركك لتكملي بحثك عن المخطوطات التاريخية وسأذهب أنا الى حساباتي لاوازنها. اتمنى لك التوفيق في حملة التفتيش. اعلميني رأيك فيها اذا وجدتها».

عادت ساندي الى المكتب لتفتش في جواريره. هناك ثلاثة جوارير محشوة بالملفات والاوراق المغلقة وقد كتب فوقها بخط مرتب. صحيح ان كان كافن اعتزل الناس واكثر من الشراب في آخر ايامه، الا انه ظل انساناً خلاقاً مبدعاً وبقي نظامياً لنهاية ايامه. كل ملف عليه عنوان وارقام متسلسلة. اول ملف اخرجته كان يحتوي على المقدمة للتاريخ.

زاد حماس ساندي واخذت اول ملف وصعدت به الى غرفتها. بدأت تقرأ عن جذور المستوطنين الاول في دانكريغان...

في اليوم التالي عادت نان الى عملها المعتاد في تدبير المنزل. بقيت مرتا نائمة صباحاً بعد ان تأخرت في سهرتها. ذهبت ساندي مع ديرميد الى الشاطىء قبل الظهر وعادت وقت الغداء. صعدت ساندي مع ديرميد بعد الغداء الى غرفتها لتقرأ المزيد مما كتبه كافن. وضعت ديرميد في سريره لينام بعد الطعام. دخلت غرفتها ولكنها لم تنعم بالهدوء لان مرتا دخلت تشرح لها ما تمتعت به في سهرتها في نادي الغولف.

«احزري من حضر الى النادي عند وصولي؟».

«لا أعرف».

«بيل لندسي». تمددت مرتا على سرير ساندي وجهها الى أسفل ورجليها تتأرجحان في الفضاء وهي تقضم تفاحة.

«لأختصر لك القصة، دعاني بيل للعشاء وبعد ذلك اخذني الى بروكفيلد حيث منزله قرب الشاطىء. كم هو فخم وافضل بكثير من هذا المنزل».

«هل رافقته اخته هيلين للعشاء؟».

«لا. التقيتها في المنزل وتصرفت أحسن تصرف أمام والدتها».

ضحكت مرتا ثم اكملت «هي ودودة للغاية، لكنها تكلّمت كلاماً غريباً يا ساندلي. قالت اني سعيدة الحظ لانني التقيت الاخوة كالدويل كل على حدة. ما رأيك بقولها؟».

«ربما كانت تعرفهم في أول عهدها بالشباب وقد اختلط عليها الشبه بينهما مثل الكثيرين. كنت اتحدث البارحة مع ليماند. اخبرته ان ديرميد يختلط عليه الامر لأنه يشبه والده كروفورد وتصرفاته تختلف عنه. اخبرني انهما كانا يلعبان هذه اللعبة... كان كل منهما يدعي انه الآخر ويتمكنان من خداع الناس. أليس هذا ما يفعله التوائم في اكثر الاحيان؟».

«اظن ذلك. لقد سألتني بعد ذلك اذا ما كنت متأكدة انني تزوجت كروفورد وليس ليماند..! شعرت كأنها سددت اليّ ضربة خفيفة. ما زلت اشعر انها لا تحبني لانني من آل كالدويل... ماذا تقرأين؟».

«مخطوطات تاريخ دانكريفان التي كتبها كافن كالدويل. انه ممتع. هل تعرفين ان الحصن يعود تاريخه الى العصور المظلمة (٤٧٦ - ١٠٠٠ ب م) اي العصور الوسطى. هي آخر معاقل المقاومة ضد الانكلو- ساكسون في القرن السادس؟ ربما بناها الملك اوربان الذي حكم مملكة تمتد من جنوب كالدويل الى دمفريز ثم غالاوي حتى ميلراز؟».

تمتمت مرتا وهي تتساءل: «متى؟».

«في أيام الملك ارثر الاسطوري. بعض هذه القصص عن الملك اوربان تشير الى مقاومته الانكلو- ساكسون وربما قد أضيفت الى الخرافات».

«صحيح. هل تقصدين الملك ارثر في التمثيلية الغنائية كاميلوت؟».

«نعم، هو الملك نفسه. كان كافن يحاول أن يبرهن صدق نظريته بالتنقيب عن أدلة، وقد وجد بعض المصنوعات التي تثبت نظريته ومنها دبوس للزينة من النقش السلتي وكذلك كتلة معدنية مضروبة معدة لصنع أشكال مختلفة، لكنني لا أعرف أين وضعها».

«اسألي نان. ربما تعرف» أضافت «انه بربري متوحش. لا احد يستطيع العيش معه. هل سمعت ما حل بزوجته؟».

«نعم. اخبرني جون الليلة الماضية القصة الحزينة. هل تظنين انها حقيقية وانها كانت في سبيلها الى الهرب مع رجل آخر؟».

«بالطبع حقيقية. لقد اخبرني زوجي كروفورد بها».

«هل قال لك سبب هروبها؟».

«لا. لكنني حزرت. لا بد أنها احبت رجلاً آخر... هذا يحصل دائماً يا غبية».

«اعتقد أنه يحصل. ولكنها مسؤولة عمّا حل بالعائلة من بعدها». كانت تكلم نفسها اكثر ما تكلم مرتا.

«ماذا تقصدين؟» استدارت مرتا في الفراش واستوت على ظهرها، تمطت كأنها قطة مدللة.

«الاسباب والنتائج. هذا هو علم التاريخ. لو لم تغرق قبلاً!.

وهي تبحر مع رجل آخر في نزهة، لما اعتزل زوجها الناس واكثر من الشراب وبالتالي اصبح عصبي المزاج واختلف مع ولديه وترك بالتالي هذا المنزل يفسد ويبلى تدريجياً».

«هذا فظيع! لو افكر مثلك بالأسباب والنتائج لما اقدمت على اي عمل. هل تعتقدين أن زوجته مسؤولة عن خلاف العجوز مع كروفورد وطرده من المنزل؟».

«لا اعرف بالضبط. من الممكن ان طباعه لم تكن لتسوء وكذلك من الممكن ان ليماند وكروفورد كانا قد عاشا بطريقة مختلفة لو بقيا في رعاية والدتهما».

«ربما». تمتمت مرتا.

«هل تعرفين أسباب الخلاف؟».

«بشكل مبهم غامض. كان كروفورد دائماً يدافع عن نفسه ويردد انه مظلوم. يقول ان والده اكتشف انه اساء التصرف في سنين سابقة قبل ان يترك ليماند المنزل ليعمل في مزارع الغير. غضب والده منه وطرده. اشعر ان ليماند له علاقة بالمسألة... القصة قديمة وقد حصلت منذ اثني عشر سنة تقريباً. الاب توفي وكذلك كروفورد... بقي من آل كالدويل الآن فقط ليماند وديرميد. هل اخبرك ليماند الليلة الماضية عن مستقبل ديرميد؟».

«ليس قبل ان افتح له الموضوع بنفسي. اخبرته ما ترغبين لابنك من فرص جيدة من اجل تعليمه. كذلك اخبرته انك لا تملكين مالاً لتعليمه

بنفسك».

«جيد. اكملي يا ساندي. ماذا كان جوابه؟ هل قال انه مستعد لتحمّل مصاريف تعليم ديرميد؟».

«لا. سألني فقط اذا كنت واثقة بأنك لا ترغبين في شيء آخر، وأجبته انني لست واثقة».

ثم نظرت اليها عاتبة «لو تبحثين معه مستقبل ديرميد صراحة. انا لن ابقى هنا طويلاً بعد.

لقد دعاني للبقاء اسبوعين فقط وينتهي هذا الموعد الاربعاء المقبل».

«عليك ان تبقي اكثر. يمكنك ذلك. لن يمانع على ما اعتقد».

«أنا أمانع». قالت ساندي بخجل.

تكدرت مرتا وتفرت الدموع من عينيها. شعرت ساندي بوخز في الضمير وبأنها غير مخلصة.

«ربما، لو يعرف ما ترغبين لتوصّل الى قرار بهذا الشأن. مرتا، هل تعليم ابنك هو كل ما ترغبين به من مساعدة؟».

أصرت ساندي ان تعرف.

كانت مرتا شاردة بأفكارها بعيداً كأنها تداعب سراً جميلاً في داخلها.

«أرجوك لا تسألي. لن افصح عن رغبتي الآن. اعتقد إن تكلمت عن رغبتي لأي انسان فسوف لا أنال ما أرغب وانا لا أريد أن أفشل. هذا شعوري الأكيد».

«نعم». تنهدت ساندي وقالت: «اعرف هذا الشعور... ولكن؟».

«تحملي معي أرجوك. أشكرك لبحثك موضوع ديرميد مع ليماند. اعتقد انك مصيبة بأن سلوك فيليدا قد أثر كثيراً على التوأم. ربما من أجل ذلك لا يثق التوأم بالنساء. تدل شهرتهما أنهما يجربان من الفتيات بعد ان يقعن في حبهما».

«هل هذا صحيح؟».

«نعم صحيح. أنا اعرف أن كروفورد كان كذلك قبل أن يلتقيني».

قامت مرتا ومشت نحو الباب وهي تهز ردفيها.

«كيف تمكنت من منعه من تركك؟».

«انت تحملين شهادة جامعية ولكنك تجهلين أمور الحياة الاساسية.

سوف لا اخبرك كيف ولكنني نجحت في مهمتي أليس كذلك؟».

«لكنك لم تنجحي مع أخيه!» علقت ساندي هازئة.

«لا لم افلح بعد ولكن...» ضحكت مرتا ضحكتها التي تشبه الشمس المشرقة.

«سمعت صوت ديرميد. لقد استفاق. لنذهب الى الشاطىء. الحمد لله ما زال الطقس جيداً».

بعد غياب الشمس وقد بدا القمر يتوسط السماء، جلست ساندي في سيارة رون كارسون السبور في طريقها الى كريغان. كان جوني برفقتهما. أوقف رون سيارته بين الطريق العام والشاطىء. صعدوا الى الفندق للقاء بعض الرفاق. لقد رضيت نان ان ترعى ديرميد في غيبتها. قاعة الفندق مليئة وكذلك غرفة الشراب. جماعات يجلسون حول طاولات يحتسون الشراب ويتحدثون.

وسع مكان للقادمين وسط مجموعة من الشباب والشابات يجلسون حول طاولة. تعرفت ساندي اليهم وطلبوا لها بعض الشراب.

همس جوني في اذنها:

«انظري من يجلس في الزاوية».

كانت مرتا تجلس ضمن مجموعة ومن بينهم بيل لندسي.

«قالت لي انها قادمة لتحضر السباق».

«اعتقد ان رابح السباق هو بيل لندسي». نظر جوني الى رون مخاطباً «من هذه المرأة التي تجلس قرب نائب مدير النادي؟».

«انها هيلين شقيقته. هي...». توقف رون عن الكلام بعد ان وكزه جوني في كتفه اشارة له ليصمت. ثم قدم له المزيد من الشراب. وبعد قليل أكمل رون كلامه في موضوع آخر قائلاً:

«هل عرفت الساقية هذه الليلة؟ انها صديقتك الشقراء. ربما ستبقى للرقص بعد دوام عملها».

«اتمنى ذلك». قال جوني وهو مأخوذ بالنظر الى الساقية الشقراء.

قرر الجميع الانتقال الى قاعة القرية للرقص. خاطب رون جوني قائلاً:

«لقد انتهيت مع الساقية الشقراء هذه الليلة. قريبك ليماند قد سبقك اليها».

نظرت ساندي الى البار. فرأت ليماند يميل الى الشقراء يكلمها. كان يرتدي سترته الرمادية، التي ارتداها يوم استقبل ساندي في دمفريز، فوق بنطلون أسود وكنزة سوداء قبتها عالية. بدا هندامه الرسمي المميز في غير مكانه المناسب وسط المصطافين في ثيابهم المختلفة الألوان. فكرت ساندي بالفارس الاسود في السباق.

«اعرف سبب حضوره». قال جوني وهو ينظر الى الزاوية التي جلست اليها مرتا مع بيل لندسي «تستغرب ما يمكن ان تفعله المنافسة؟».

كانت تجلس مرتا تتحدث بروح معنوية عالية بعض القصص. وضعها وسط المجموعة تخزي بنظر ليماند ويحط من قدره وقدر عائلته. الى الجهة الاخرى جلست هيلين وعيناها الزرقاوان على ليماند وقد ابيض وجهها كأنها ترى شبحاً أمامها. أشاحت ساندي بنظرها عن هيلين ولكنها اكتشفت ان ليماند يراقبها هي. حيته باستحياء. خجلت من نفسها لأن حمرة الخجل قد تسربت الى وجهها بدون ارادتها. هز ليماند رأسه يحييها. وقف رون ومجموعة الشباب عندئذ لمغادرة الفندق في طريقهم الى قاعة الرقص الكبرى في القرية.

وصلت المجموعة الى القاعة. كانت اصوات الموسيقى الصاخبة تسمع من الخارج. دخلوا ونزلوا فوراً الى حلبة الرقص على أنغام الروك. الرقص وسيلة تعبير وهروب. يساعد على الاسترخاء والتخلص من التشنجات العضلية. ينسي الهموم ويساعد على حل المشاكل...

توقفت الموسيقى. جلست ساندي على كرسي قرب الحائط للاستراحة. جلس رون قربها بينما وقف جوني أمامها. مال رون الى الامام يخاطب جوني وهو يبتسم مكشراً:

«لا تنظر الى المدخل. حضرت الشقراء برفقة ليماند».

«لا يضيّع وقته صديقي». سخر رون وهو ينظر الى جوني «يمكنك إن تطلب منه ان يعرفك اليها».

«كيف؟» سأله جوني باهتمام بالغ.

«هنالك رقصة الفالس التي ستعزف عاجلاً أم آجلاً. يحق لك ان تقطع على اي اثنين وتراقص مرافقته بدلاً منه».

كان رون صادقاً. توقفت موسيقى الروك واستبدلت الفرقة بأخرى

تعزف موسيقى اسكوتلندية ريفية. كانت أول رقصة اعلنت الفرقة عنها رقصة الفالس. كل من ليس له رفيقة لتراقصه، يمكنه ان يقطع على اي راقصين ويطلب التبادل مع الراقص».

«ابشر يا عزيزي. ها هي فرصتك الذهبية». اعلن رون وهو يضحك «تعالي يا ساندي راقصيني».

كان رون يرقص وهو يعلق على كل ما يراه حوله في حلبة الرقص. «لقد قطع جوني على ليماند رقصته. انه يراقص الآن الساقية الشقراء. اظنك سمعت عن السلوك الغريب الذي مارسه ليماند وشقيقه التوأم كروفورد حين كانا يحضران الى قاعة الرقص في السنين السابقة».

«كلا. لم اسمع. قل لي يا رون. اخبرني». قالت وهي تلهث من كثرة اللف والدوران.

«شقيقتي جين متزوجة الآن وعندها ولدان. قالت لي انها ذهبت مرة للرقص بصحبة ليماند وعادت الى المنزل بصحبة كروفورد. لكنها لم تعرف انهما تبادلاها الا بعد اسبوع حين اخبرتها الفتاة التي ذهبت عائدة بصحبة ليماند القصة. كانا يفعلان مثل هذه الحيل دائماً».

كان لا بد لهما ان يقعا في مشكلة يوماً ما».

«اي مشكلة يمكن ان يقعا فيها؟».

«اتهم احدهما بانه عبث مع احدى الفتيات بينما شقيقه التوأم هو الذي قام بذلك. اتفهمين ما أعني؟ عرف والداهما بالأمر...».

«عن اذنك. هل لي ان اقطع عليك رقصتك يا رون؟» كان صوت ليماند بارداً بدون ابتسامة.

لقد قطع الحديث عنها كذلك. لقد حصل اليوم ما حصل في المكتبة حين كان جوني يخبرها عن فيلندا. دائماً ليماند يقطع عليها حبل المعرفة. كانت ساندي تفكر في نفسها.

«من حفر حفرة لأخيه وقع فيها». اجابه رون وهو يضحك من الألم. «سأراك فيما بعد يا ساندي». دار يفتش عن فتيات من معارفه كن يجلسن يسترحن ليكمل ثرثرته معهن.

كانت ساندي ترقص بسهولة مع رون. اما الآن فالامر يختلف. لقد وضع ليماند يده على خصرها وامسك بيدها في حزم شديد. كانت يده

بارزة قاسية. ارتعشت بين يديه وتشنجت. شعرت أنها لا تعرف الرقص.

«تبدين غير مرتاحة».

«أشعر بدفء هنا من كثرة الازدحام».

«لنترك الى الخارج نتمشى ونشم هواء لطيفاً». قادها الى مقعدها حيث أخذت سترتها الصوفية. ترددت ساندي قبل أن تخرج. كانت تفتش عن جوني الذي كان مشغولاً كلياً بالشقراء التي ما يزال يراقصها. وقع نظرها بعد ذلك على رون وقد انشغل بفتاة حسناء في الثامنة عشرة من عمرها. شعرها أسود مجعد. نظرت ساندي الى ليماند الذي كان يراقبها كأنه يقرأ افكارها على الطريقة الغجرية.

«كل منهما يتمتع برفيقته الجديدة اكثر بكثير من رفقتك انت».

«هذا غير لائق بك ان تقوله لي».

اعترضت. ثم قالت في نفسها ماذا يعرف عني وعن جاذبيتي وسط معارفي ورفاقي: تذكرت أن رفقتها ممتعة في قاعة المحاضرات او المناقشات او الرحلات التعليمية. أما في الحفلات الراقصة فكان رفاقها يفضلون عليها الفتيات الاكثر جمالاً والعابثات المستهترات.

«عنيت بقولي مديحاً، ليس الا. هما يهتمان بالشكل الخارجي وليس في المضمون الداخلي للفتاة. اهتمامهما ينصب فيما تكشف عنه المرأة وليس بما في داخلها. أنت رصينة وبريئة ولن تروقي لهما الليلة. كل ما يبغيانه الليلة هو المتعة».

«ما أدراك ان ذلك بغيتهما؟».

هز كتفيه وضحك ضحكة قصيرة جذابة وقال:

«اعرف ذلك من خبرتي السابقة منذ اثنتي عشرة سنة عندما كنت أحضر الى قاعة الرقص لهذه الاسباب... تعالي نتمشى معاً في ضوء القمر ونبحث في المصالح المشتركة».

شعرت انه يسخر منها. نظرت اليه. أعاد اليها النظر بدون أي تعبير. قالت:

«ما هي المصالح المشتركة بيننا؟» خالجها شعور غريب هو الشعور نفسه الذي تحسه كلما التقته شعور ينبهها الى خطر المشي معه في ضوء

القمر.

«مستقبل ديرميد، سعادة مرتا... لدي بعض الاسئلة ربما تعرفين الاجابة عنها. أريد نصيحتك ايضاً في مسألة أخرى. هل تتمشين؟».

٤ – درعه يلين بالعناق

حملت ساندي شالها الصوفي ولفت به كتفيها وذهبت برفقة ليماند. اليست هي الرسول بينه وبين مرتا وهذه حجته ليحظى بها لنفسه فترة وجيزة.

خرجا من القاعة المزدحمة بالناس والضجيج الى الجو اللطيف في هدأة الليل تحت ضوء القمر تمشيا سوياً في ممر مرصوف بحجارة الغرانيت، تغطيها اشجار الحور العملاقة. كانت المنازل القريبة المطلية باللون الأبيض تظهر كالاشباح وسط العتمة. النسمات تداعب مياه المصب فتتراقص جذلة، وتظهر التلال المرتفعة خلف المصب تعكس ظلالها المستديرة على صفحة السماء المنارة بضوء القمر.

ليلة مميزة للعشاق، كانت ساندي تفكر حالمة... اعادها الى صوابها الرجل الذي يمشي قربها حين سألها ضاحكاً:

«منذ متى تعرف مرتا بيل لندسي؟».

اذن، جولي على صواب، ان المنافسة بينه وبين بيل هي التي حملته الى الخروج من عزلته.

لهذا السبب حضر ليماند الليلة الى كريغان يتتبع اخبار مرتا. ربما سمع اشاعة مفادها ان مرتا تخرج مع بيل وحضر بنفسه يتقصى الحقيقة.

«لا اعرف. تعرفت اليه قبل حضوري الى دانكريغان. كانت برفقة جولي في نادي اليخوت حيث تعرفت به. ثم ان ديرميد يلعب يومياً مع اولاد بيل على الشاطىء. واحياناً يحضر هو ايضاً الى الشاطىء بعد ان يفرغ من عمله». احست غضبه يتصاعد من تأثير حديثها، فانبرت تدافع عن

ابنة خالها تقول:

«لا تهتم للأمر. مرتا تحب ان تحيط نفسها بالعديد من الاصدقاء. انها اجتماعية وتحب الاختلاط مع الناس».

«هذا ما لاحظته اليوم، حين رأيتها تذهب برفقة بيل، في سيارته. فوجئت لأنها وجدت اصدقاء من تلك الضاحية».

«امن اجل الخصومة؟».

«اي خصومة؟».

«اخبرتني نان بأن هناك خصومة عاشت بين عائلتي كالدويل ولندسي، في غابر الأزمان. العائلتان تخاصمتا على الأرض او القطعان... اليوم انتهت الخصومة بالتأكيد».

«كان عليّ ان افطن الى انك ستكشفين الستار عن القصص البربرية عند جدودي». قال ذلك وهو يضحك. ثم اكمل «الآن نحن لا نتخاصم من اجل الأرض او القطعان. لقد تمدنا».

«كيف ذلك؟».

«مثلاً. هيلين لندسي احبت شقيقي كروفورد منذ سنين قليلة. العلاقة لم ترق لوالدها فقتلتها في المهد».

«اوه. وهل رغبت الزواج به؟» سألت ساندي تستوضح الأمر لأنه يجلو بعض الغموض لديها. ثم قالت: «لهذا السبب تصرفت هيلين بغرابة عندما قدم بيل اخته الى مرتا. لقد ظنت هيلين ان مرتا نجحت حيث فشلت هي». ثم يوم رأتك هيلين في النادي كانت تنظر اليك كأنها ترى شبحاً».

«صحيح لم الاحظ. كانت دائماً تجد صعوبة في التفريق بين اخي وبيني».

«مثل فتيات كثيرات غيرها، اذا كان ما سمعته الليلة صحيحاً. كانت تضحك منه لتضايقه».

«لقد سمعت قصة جين شقيقة رون كارسون بالتأكيد. جرام جين لم ولن تغفر لنا ابداً».

«الحقيقة. انه عمل غير مهذب. كيف تقومان بحيل وخدع مثل تلك؟».

«كنا نقصد المزاح وليس الضرر». قال بهدوء «وعندما كبرنا كانت لهذه اللعبة نتائج وخيمة دوت كقرع الطبول».

«ولقد نلت انت اللوم على شيء بغيض فعله شقيقك التوأم كروفورد».

توقف ليماند عن المشي واستدار ليواجهها. امسك بذراعيها وهزها. نظر الى وجهها مستطلعاً كان ضوء القمر يغمر وجهها وقد بدا الخوف على محياها. سألها:

«من اخبرك؟»

«لا احد. رون سمع اشاعة تقول ان احدكما كان ملاماً عن شيء اقترفه الآخر. اعتقد انك انت البريء». قالت ساندي وهي ترتعش.

«وكيف توصلت الى هذا الاستنتاج؟» قال وقد حاول ان يكبح جماح غضبه. اختفى صوته لكن يده ما زالت ممسكة بذراعها في عنف مما يدل على شدة غضبه وانفعاله.

«جمعت اثنين مع اثنين». حاولت ان تفلت من قبضته ولكنها لم تفلح «انت... انت تؤلمني. اترك ذراعي ارجوك؟».

تركها في الحال. كانت تسمع انفاسه تخرج بصعوبة من بين اسنانه وهو يتنهد بغضب.

«هل يمكنك ان تخبريني ماذا تعنين؟».

«ان ما سمعته عن كروفورد من زوجته مرتا، ثم ما سمعته من نات، وكذلك ما عرفته عنك خلال اقامتي في منزلك...».

ادار رأسه بسرعة نحوها. ذهل. تسمر في مكانه. ثم قال:

«عليّ ان اكون حذراً في ما اعمل او اقول خلال اقامتك في دانكريغان. لم افطن الى ان متخصصة في علم التاريخ يمكنها ان تكون خطيرة. اياك ان تظني ان باستطاعتك فتح خزانة واخراج الهياكل العظمية للعائلة من داخلها. اياك ان تجمعي اثنين مع اثنين مرة ثانية. المنطقة مليئة بالثرثارين. عادة يكون جمع اثنين مع اثنين خمسة بدلاً من اربعة هنا. بهذه العمليات الحسابية تمكن الناس من ازعاج والدي وسرقة راحة باله. ارجو ان لا تقومي باقتناص المعلومات عني او عن شقيقي كروفورد من خلال اقامتك هنا. هل فهمت جيداً ما اقصد؟».

وقفت ساندي مسمرة. شعرت بالغضب يتملكها. لقد عرضت نفسها

لانتقاداته اللاذعة بدون ان تدري. نسيت كبرياء آل كالدويل التي لا تهزم. اجابته:

«نعم فهمت ما تقصد. انني لم ابحث عن معلومات ابداً. ليس بيدي ان افعل اي شيء حيال كلام الناس. الجميع يتكلمون عنك وعن عائلتك امامي».

«هذا صحيح. يمكنك ان تكفي عن استنتاجاتك مما تسمعين. ربما معرفة الماضي ضرورية لفهم الحاضر، لكنني افضل ان اغلق الباب على الماضي. كان علي ان اغلق هذا الباب لانقذ دانكريغان. عملت جهدي لتصبح مزرعة منتجة مزدهرة. همي ان يأتي الجيل الجديد من آل كالدويل يرث اكثر من منزل متهدم وحصن متداع وحقول تغطيها الاعشاب اليابسة وحفنة من الديون. الحزن والبكاء على الماضي لا يفيد والعزلة عن الناس، كما فعل والدي، لم تسفر عن اي نتيجة».

«انا لا اوافقك الرأي. لقد اعطى والدك تاريخاً. ربما تفضل ان تحرق المخطوطات مع الكتب والستائر والاثاث... اوه ليماند، اعرف ما تكابد اليوم، ولكن، الا تعتقد انك تأثرت بالماضي فهو الذي جعلك بهذا التفكير، رجل كادح، تعمل لبناء المستقبل بشكل افضل. لقد تعلمت من اخطاء والدك».

كان يستمع اليها باهتمام. كلماتها تلاقي اذناً صاغية. وبعد فترة صمت قصيرة قال:

«انك تهتمين بما احاول القيام به».

«بالطبع.. بالطبع اهتم».

ران صمت آخر. ثم سمعته يضحك.

«انها المرة الأولى في حياتي، اصطحب معي فتاة تتمشى تحت ضوء القمر وامضي الوقت اناقشها!».

«كان لا لزوم للنقاش لو لم تغضب انت من استنتاجي الصحيح انك اخذت كل اللوم عن اخطاء ارتكبها اخوك. انا لا استغرب انك كنت دائماً تستر عن اخطائه وتفخر من عملك هذا. لقد ازعجك كثيراً ان احداً اكتشف الحقيقة التي كنت وما زلت تخفيها عن الجميع».

«كفى، كفى ارجوك».

«كان مرهقاً يحاول ان يمسك بذراعها ليجعلها تقف: «الا ترين انك تعطمين اعتقاداً راسخاً لدي بانني كنت على صواب في تغطيتي لاخطاء اخي وسكوتي حين كان اللوم يقع علي».

«هذا فظيع. كيف يلومونك انت على افعال سيئة...؟».

«ماذا تقصدين؟». كان يحاول ان يسخر «كلانا من طينة واحدة. لم يكن احد يفرق بيننا».

«اعمالكما تساعد على التفريق بينكما. خبرتك في الحياة تختلف عن خبرته. في السنوات الماضية، هناك امثلة عديدة تساعد على التفريق بينكما. انكما تختلفان كلياً في طباعكما».

تمنت ساندي ان تسأله ما الذي فعله كرفورد واتهم هو به ولكنها خافت ان يتهمها من جديد باقتناص المعلومات عنه. سكتت.

«ربما». كان ما يزال ممسكاً بذراعها. تعجبت. انه واقف لا يتحرك. انه يمعن النظر اليها كأنه يراها للمرة الأولى. اكمل «ولا واحد منا كان يمكن ان يضيع فرصة سانحة مثل هذه».

تحرك من جموده. انقض كالنسر على فريسته. عانقها بشدة وكاد يخنقها. حرك ذراعه ليحيط بها. تراجعت الى الوراء وركضت باتجاه النور والموسيقى.

كانت تركض ويدها على فمها. كاد قلبها ان ينفطر. لماذا تركض؟ انه شعور فطري، الهرب، قبل فوات الأوان، من شخص يستطيع ان ينتصر على قلبها وجسمها معاً. شخص اصبح مهماً لديها اكثر من اي انسان في الوجود، اهم اليها من نفسها. وقفت خارج قاعة الرقص لتهدىء من روعها. رتبت شعرها بيديها. كانت لا تريد جوني او رون ان يلحظا عليها اي تغيير في شكلها الخارجي، فهما عينان ثاقبتان وبالتالي يؤولان اشياء عنها. نظرت حولها لترى اذا كان ليماند قد لحق بها. ثم دخلت قاعة الرقص وكلها امل في ان تجد جوني او رون لتحتمي بهما حين يعود ليماند الى القاعة. كان من الصعب العثور عليهما وسط ازدحام الراقصين. التفت ساندي فتاة كانت ضمن المجموعة التي تعرفت اليها. مشت اليها وسألتها باعلى صوتها:

«اين جوني ورون؟».

«خرجا. ذهبا الى كيركتون منذ ربع ساعة. فتشا عنك ولم يجداك. اعتقد جوني انك ذهبت بصحبة ليماند، قريبه. طلب الي ان اعلمك انه غادر».

«شكراً جزيلاً».

مشت ساندي الى الخارج مرة ثانية، حيث ضوء القمر. الآن، لم يلحق بها ليماند. لا تراه. احتارت، ماذا تفعل؟ يمكنها العودة الى «دانكريغان» لوحدها. يمكنها المشي بمحاذاة الطريق العام ثم عبر التلال في الطرق القادومية. انها لا تعرف طريق التلال، رحلة شاعرية في ليلة مقمرة. مشت لوحدها لنهاية القرية. مرت بطريقها على الفندق. لقد اطفأ انواره ويسوده الظلام والهدوء. مرت بعد ذلك بنادي اليخوت وبقية متاجر القرية. انتهت رحلتها على الطريق العام وعليها ان تمشي عبر التلال.

بدأ القمر رحلته باتجاه الغرب ومن مركز القمر في السماء قررت ان دانكريغان تقع الى الشرق. كان الممر الذي تسير فيه باتجاه الجنوب. ظنت انه ربما يتعطف بعد ذلك شرقاً. مشت. رائحة البحر تصل الى انفها، والنسيم العليل يداعب شعرها ووجهها، والقمر يعكس اشعته الفضية على مياهها. هدوء كبير في مياه المصب، كان المياه نائمة، ضاق الممر، اصبح المصب الى يمينها، احست بالاعشاب تلفها. شجيرات شوكية، ربما هي اشجار ورد وشوكها كبير، كانت سترتها الصوفية تعلق بالاشواك. اختفى القمر خلف الشجيرات. لم تعد تدري اين طريقها. خافت، شعرت بقشعريرة تسري في جسمها وجفاف في حلقها، شيء ما خلفها يخشخش. غصن شجرة التوى ثم انكسر. ما الذي كسره؟ التفتت خلفها، رأت شبحاً يقترب منها. صرخت:

«من هناك؟».

«ساندي؟ الى اين تذهبين؟».

كان صوت ليماند.

اقترب الشبح وتمثل بشراً، عرفته للحال. انتابتها رعشة قوية سألها:

«ما الأمر؟».

«اخفتني! لم اسمعك تقترب».

قالت واسنانها تصطك. بقيت ترتجف. . . مشى اليها وامسك بذراعيها. صرخت:

«لا تلمسني».

لم يأبه لاعتراضها. جذبها اليه بقوة وضمها الى صدره وقال:

«لا رغبة لي بأن اخيفك. كنت في الطريق المؤدي الى المنزل. رأيتك تأخذين الطريق المؤدية الى مصب النهر. اهدأي. لا شيء يخيف هنا. . .».

الدفء في جسده وقبضته القوية تحتويها وضحكته المكتومة في صوته وهو يهدىء من روعها، كل هذه اجتمعت لتعطيها الطمأنينة، وتدريجياً هدأ روعها وسكنت ولم تعد ترتجف.

«سأرافقك الى المنزل في دانكريغان. لقد اخذت طريقاً خطأ. هذه الطريق توصلك الى الرمال. الآن وقت المد والرمال لن ترحمك».

كانت ساندي تتمتع براحة وهو يضمها اليه، تحس دفء جسمه وقوته ولكنها تحركت تحاول الافلات منه. وللفور تركها وقال:

«هل انت احسن؟».

«نعم. شكراً. لا اعرف ما الذي حصل لي؟ عادة لا اخاف!».

«انت لست معتادة على ان تكوني لوحدك في الريف وسط الليل. ثم ربما ضوء القمر جعل خيالك يجنح بعيداً وتخيلاتك صورت لك اشياء غريبة».

«صحيح. كيف عرفت؟».

«انك لست الوحيدة التي حصل لها ما حصل لك في ضوء القمر. نان تقول انها غريزة البقاء تنبهك عند اقتراب الخطر اليك. هذا صحيح. الرمال خطيرة هنا وربما ابتلعتك!».

«رمال متحركة!» كادت تصرخ من الخوف. لقد وقف شعر رأسها من الفزع.

«هل تستطيعين العودة معي في الطريق الصحيح؟».

«نعم نعم شكراً. هذه هي المرة الثانية التي تنقذني فيها من الخطر. صحيح؟».

«نعم. هل تذكر يوم اقفلت باب الحصن علي؟».

«تذكرت».

مشيا الى القرية سوية. قال ليماند يحدثها:

«اعتقد ان جوني وروني قد تركا قاعة الرقص حين عدت اليها».

«نعم. ذهبا الى كيركتون، ولهذا السبب حاولت العودة لوحدي».

«ليس من المستحسن ان تعودي لوحدك في طريق لا تعرفينها جيداً. كيف يمكن لفتاة مثلك، تعتمد على نفسها، مقتدرة، تتمتع بالحرية، ان تخاف بهذه السهولة! هل خفت ايضاً من عناقي؟ لهذا ركضت؟» صوته هادىء ومتين.

«لا، كانت تكذب. لم يعجبني تصرفك ولم ارحب بفكرتك التي مفادها ان باستطاعتك عناقي متى ترغب. لماذا فعلت ذلك؟».

«لقد قلت لك انها فرصة سانحة لا تعوض. لقد حان الوقت لتجدي رجلاً يعاملك كامرأة وليس كشخص لا جنس معين له، حسب اعتقادك بنفسك، انت ترتدين اليوم ثوباً وهذا يليق بك اكثر من البنطلون».

لقد اغضبها انتقاده، ولكنها فضلت الصمت لأن امامها تلة عليها صعودها. كان القمر خلفهما ينير لهما الطريق. ظلهما يمشي امامهما.

«ما اجمل شكل القمر، كيف ينام على ضفة النهر. . .» كان ليماند يتلو شعراً قد حفظه. تعجبت. قال «لقد نسيت بقية ابياته. انت اقرب مني الى ايام الدراسة. هل قرأت تاجر البندقية؟ هل تذكرين بقية الابيات؟».

«نعم. قرأت التمثيلية في المدرسة واذكر المنظر بين جيسيكا ولورنزو جيداً عندما تقول جيسيكا:

«في هذا الليل

اقسم لورنزو الشاب انه يحبها كثيراً

لقد سرق قلبها وروحها بوعود الاخلاص والولاء

وليس بينها ابداً واحد صحيح».

(شكسبير)

انتهت ساندي من تلاوة الشعر وضحك هو تقديراً لها وقال:

«لقد فهمت مرادك. انت تقولين انك لن تنخدعي بالكلمات المعسولة

ولا العناق في ضوء القمر، لا عليك. انت في امان. لن اقسم لك بأنني احبك ولكن يجب ان اعانقك مرة ثانية، لتعرفي بنفسك».

تراجعت الى الخلف محاولة الابتعاد عنه. تحركت حصاة صغيرة تحت كعب حذائها. اختل توازنها. كانت ستقع الى الوراء في حفرة عليق لو لم يسارع ليماند ويمسك بها من خصرها.

«عملية انقاذ رقم ثلاثة» ضحك ساخراً «اصبحت عادة مستحكمة. لكنك ترتعشين. لم اقل سأعانقك الآن» قلت مرة ثانية... انتهي الى قدميك ونحن نمشي. لا ارغب لك ان تلوي كاحلك».

لقد تبلبل تفكيرها. كل ما تفوه به غير معقول. عودتها مع ليماند في ضوء القمر شيء جديد تختبره للمرة الأولى في حياتها. شعور جديد ضعضع كيانها وتوازنها. لقد تغيرت حتماً. هي اليوم غيرها بالامس. سألها فجأة كأنه ما زال يفكر فيها:

«وماذا ستفعلين بعد انتهاء عطلة الصيف؟».

«سأعود للجامعة لأكمل تحصيلي العلمي».

«اذن، انت لا تلعبين دور المثقفة لفترة ما قبل الزواج. انت حقاً مهتمة بالعلم».

«نعم. احب ان اعمل في دائرة التنقيب في المتحف بعد ان انتهي من دراستي».

«أليس لديك مشروع لبناء منزل زوجي مع شخص ما، وربما اولاد؟».

«ليس بعد. ليس قبل سنين وسنين. فقط حين التقي الشخص المناسب».

«بالطبع. سيكون لديكما مصالح مشتركة مثل بقايا الفخار القديم، توابيت الموتى...».

وقد برهن لها ان معلوماته في هذا الحقل، لا بأس بها، افضل مما يبديه للآخرين. ثم

«واظن انك لم تلتقيه بعد؟».

فكرت ساندي في ديريك. في وجهه الجميل وحاجبيه التي تشبه الاقلام وشعره الأشقر

«ربما اكون قد التقيته. اود ان اتأكد من ذلك مع نهاية الصيف. انه مسافر الآن».

«بالتأكيد. انت الآن في فترة تجربة، تقيمين الوضع بعدها. اذا كان غيابه قد احزنك وشعرت بفراغ فانك تحبينه، اما اذا كان العكس فانك لا تحبينه».

«كيف عرفت ذلك؟».

«هي طريقة اتبعتها بنفسي مرة واحدة».

«هل نفعت؟ ماذا اكتشفت؟».

«اذا كانت الفتاة بعيدة عن العين فهي بالتالي بعيدة عن القلب. اكتشفت ان هناك الألوف من الزهرات الجميلات غيرها ينتظرن من يقطفها».

«وهل قطفت زهرة منها؟».

«نعم. ولكن ليس لتبقى معي دائماً».

«وهل تظن انك ستجد زهرة لتبقى معك دائماً».

لم تكن ساندي لتجرؤ على مثل هذا السؤال الخاص لو لم تكن تحت تأثير سحر ضوء القمر.

«اعتقد اني وجدتها. ربما اقرر مع نهاية الصيف». كان يجيبها الآن بمثل جوابها له وهو يضحك ساخراً.

هل يفكر بمرتا؟ كيف لها ان تعرف؟ لو سألته لظن انها تبحث من جديد عن معلومات خاصة. سألته

«ماذا بشأن ديرميد؟ هل ستفعل شيئاً لأجله؟».

«هذا ما كنت ارغب التحدث به معك. الا اننا خرجنا عن الموضوع الرئيسي... ثم هربت... ما زلت افكر بالموضوع. علي ان اعرف ماذا ترغب مرتا بالتفصيل؟» كان يتكلم ببطء شديد. كأنه يتسلى بها. «لا اعتقد ان عليك الانتظار لنهاية الصيف. لماذا لا تسألها الآن...».

«اسألها؟» استدار ليواجهها. توقفا عن السير. خلفه منزل دانكريغان تلفه الاشجار، وامامه القمر الساطع، ووجهها

«لتتزوجها». دفعت اليه بكلماتها مرة واحدة. ثم اكملت «اذا تزوجتها تنحل جميع المشاكل. اليس كذلك؟ يمكنك ان تتبنى ديرميد وتربيه على انه

ابنك».

وقف امامها كالمتمثال بدون حراك وجهه يلمع في ضوء القمر ولكنه خال من اي تعبير سائلا:

«هل انت واثقة من ان هذا ما ترغبه مرتا؟».

لم تقل ذلك بكلمات واضحة ولكنها لمحت تلميحاً يوم كنا سوية على الشاطىء. اخبرتني انها ترغب في الزواج مرة ثانية وانها وجدت من يأخذ مكان كروفورد في حياتها، ويكون اباً لديزميد. لقد رسمت لي حرف (ل) على الرمال بانه المرشح لأن يصبح زوج المستقبل». كانت تتكلم بسرعة كأنها خائفة منه.

سخر منها وقال:

«انت جمعت اثنين مع اثنين مرة ثانية».

«نعم».

لم يعلق، لكنها لحظت في عينيه السوداوين علامة عدم الرضى. استدار من جديد ليصبح في محاذاتها ليمشي قربها في الممر المؤدي الى المنزل.

وصلا الى المدخل الرئيسي حيث الدرجات، الضوء الخافت لا يكاد يضيء اكثر من رقعة صغيرة امام الباب الرئيسي للمنزل. بدأت ساندي تصعد الدرجات القليلة المؤدية الى الفسحة امام الباب.

«ساندي. انتظري لحظة» قال ليماند. ظنت انه سيضيف شيئاً آخر عن مرتا وزواجه بها. وقفت امامه تنتظر.

«ساندي هو اسم مختصر لاسكندر ويبدو غريباً لفتاة».

«لكنه بالنسبة الي اختصار لالكسندرا المؤنث».

«انه يجعلني اتهيب كأني امام ملكة، رابطة الجاش».

«كأنك امام الملكة الكسندرا». قالت وهي تضحك «أنا اعرف انه من الممكن ان تظن اي شيء، ما عدا ان اكون ملكة لها رباطة جاش وبأس».

«صدقت. رأيي فيك هو انك طويلة، ذات رجلين نحيلتين، فتاة مغرورة، وللآن لم تعرف نفسها بعد».

«اشكرك. اعتقد انك اعطيت رأيك بوضوح الليلة. قلت (شخص لا جنس معين له) على ما اذكر». كانت ترد له الكيل كيلين وتحاوره محاورة الند للند، ولديها رغبة ملحة في ان تتلهى معه خارج المنزل. الليل هادىء

والهواء عليل وقد وجدت في الأخذ والرد معه في الكلام متعة تساعدها على التقارب والتفاهم معه. وجدت ان تخاصمها الدائم فيه لذة غريبة. شعور لم تألفه من قبل مع اي رجل اخر.

«اذن اسمك ساندي. دعيني افكر ما معناه. ربما هو كذلك بالنسبة الى شعرك لأنه بلون الرمال - الرمال الحريرية الصفراء».

رفع يده ولمس شعرها الناعم اللامع فوق جبينها. حبست انفاسها. شعرت باحساس غريب يغمرها. بدأت رجلاها ترتجفان. تسمرت مكانها. كانت مصممة على البقاء على هذا الحال لتعرف ما الذي سيحصل بعد ذلك. تحركت يده ولامست جانب وجهها لمسة رقيقة ثم لف بيده ذقنها بلين وحنان. لم تحاول الافلات. كانت لحظات ارتقاب كأنه ينتظر ان تتراجع الى الوراء. لحظات بمقدار ضربتين من ضربات القلب، ثم انحنى فوقها فعانقها.

لم تقاوم. كانت طيعة تتبع خطواته الخبيرة في العناق. لف ذراعيه حولها وهي كذلك لفت ذراعيها حوله لتلتصق به اكثر. لدقائق معدودة كل شيء حولها اختفى. توقف ليماند اولاً ولكنه ظل ممسكاً بها قريبة اليه.

«عمل جيد من شيء لا جنس معين له ساصنع منك امرأة».

اعادا العناق مرة ثانية. كانت تتجاوب مع خلجاته. شعرت كأن باباً مغلقاً في داخلها قد فتح لأول مرة. غمرها شعور هائل بالعطاء بدون تردد. يمكنه ان يفعل بها ما يشاء لأنها هي تشاء ايضاً.

توقفت سيارة في المدخل الرئيسي. ضوؤها وصوتها لفهما. ترك ليماند ساندي من بين يديه وهو يشتم بصوت منخفض. توقف المحرك وفتح الباب. تمنت ساندي ان لا تكون مرتا هي القادمة مع بيل لندسي.

«ليماند؟ اهذا انت؟» كان صوت انثوي رفيع يتكلم بعصبية، كأن القادمة تهاب هذا اللقاء.

«من غيري هنا! هيلين لندسي؟» كان يخاطبها بلهجة مهينة «كنت اتعجب متى تجدين حجة للحضور الى هنا».

كانت ساندي تفتح الباب. اجفلت من لهجته، وكانت متأكدة ان المرأة الاخرى قد اجفلت بدورها من قساوة ملاحظته.

«لقد حصل حادث» كانت هيلين تخبره وهي خائفة.

«حادث». رددت ساندي في نفسها. كان كل تفكيرها ان مرتا موجودة في السيارة.

سألها ليماند بصوت جاف:

«يا هيلين، تكلمي. ما نوع الحادث؟»!

«وقعت مرتا هذا المساء في منزلنا في بروكفيلد. كسرت رجلها اليمنى. علق كعب حذائها في السجادة وتزحلقت فوق الأرضية اللمعة. طلب الي بيل الحضور لاخبارك». قالت ذلك وبقيت تنظر اليه تنتظر اوامره.

«طبعاً. لم يكن لمرتا ان تختار مكاناً افضل لكسر رجلها!» كان يحاول المزاح «في منزل جراح للتجبير. اعتقد ان بيل تدارك الأمر وهي الآن في المستشفى تحظى بالعلاج الناجح والعناية الفائقة».

«مسكينة مرتا». تأسفت ساندي وهي تفكر بالألم ثم خيبة الأمل التي تمر بها. ثم سألت هيلين «هل هو كسر ام التواء؟».

نظرت هيلين اليها اخيراً. كانت تتجاهلها قبل ذلك. هناك ضعف. إكتشفت ساندي ان هيلين نسيتها تماماً. شرحت لها عن نفسها قائلة

«انا ابنة عمة مرتا، ساندي فيليبس. انا اسأل لأن بالي مشغول عليها. هل استطيع زيارتها في المستشفى؟».

«آه، انت مربية الصبي الصغير. مرتا اخبرتني عنك». كانت تتكلم بلهجة متكبرة ومتعالية «لا يمكنني ان اخبرك بشأن الكسر لأن صور الاشعة لم تظهر بعد، حين تركت المستشفى، عليك الاستفسار بنفسك عن مواعيد الزيارات».

قالت ذلك واستدارت لناحية ليماند كأنها تصرفها. بالتأكيد. لا وقت لديها لمربية تافهة تسمح لنفسها ان تكون في مشهد غرامي بين اقطاعي كالدويل صاحب دانكريغان وسألت:

«ليماند، اتريد ان احادثك بشيء هام يخصك؟»

«الوقت متأخر وعلي القيام باكراً لأعمال هامة». بدأ يتحرك. شعرت ساندي انه يرفضها ويتخلص منها.

«ارجوك يا ليماند». لهجتها المترفعة قد تغيرت لما يشبه التمني والترجي. «لم نتقابل منذ فترة طويلة. كنت دائماً افكر فيك. واريد ان اعترف لك

بخطاي، كنت غبية ومغفلة. لقد صدقت كروفورد حين قال لي انك . . .».

«هيلين، ليس هذا لا المكان ولا الزمان المناسب لهذه الاحاديث».

«بل . . . قل . . .» لم تكمل حديثها، بل نظرت الى ساندي. احست ساندي ان عليها الانصراف.

«مساء الخير». قالت ساندي قبل ان تدخل المنزل. اغلقت الباب خلفها. صعدت السلالم بهدوء. وهي تشعر بثقل غريب في قلبها. لحظات العناق مع ليماند في ضوء القمر قد انتهت. انقطعت بوصول هيلين. لو لم تحضر هيلين؟

ارتجفت ساندي قليلاً، ليس من البرد او الخوف بل من خيبة الأمل. هرعت الى غرفتها دخلت فراشها. بدأت تفكر في مرتا. كم من الوقت يستغرق شفاء الكسر؟ ستة اسابيع على الاقل. عليها الاعتناء بديرميد لحين شفائها. ربما تأخذ الصبي معها الى هامشير الاربعاء المقبل، موعد سفرها بعد ان تنتهي ضيافتها التي حددها ليماند باسبوعين. ستقترح هذا الحل على ابنة خالها غداً عندما تزورها في المستشفى.

ربما لا يسمح ليماند لها باخذ ديرميد بعيداً عن دانكريغان. ذلك يتوقف على ليماند وكيف سيتصرف بعد ان اخبرته برغبة مرتا في الزواج منه. لقد تفاجأ حين اخبرته. لكنها مقتنعة في قرارة نفسها بأن ليماند متعلق بابنة خالها في سره. ومن اجلها حضر الى كريغان ثم لحق بها الى قاعة الرقص ليسألها اسئلة تتعلق بصداقة مرتا وبيل لندسي. لأن لندسي كما قال جوني هو منافسه الى قلب مرتا. هي تعرف مرتا جيداً ولا تستغرب ان تكون هي التي دبرت هذه الخطة لتحرض ليماند ليتحرك ويتصرف.

كل شيء اخر حصل هو من تأثير ضوء القمر عليها ولا يعني لها شيئاً. عناق الفتاة التي مشى معها الى منزلها، قبل وداعها الى النوم، شيء طبيعي بالنسبة الى ليماند. هو يفعله مع كل فتاة يخرج معها كجزء من المرح المنتظر بعد الرقص في القرية. لو لم تكن هي معه لكانت الساقية الشقراء . . . لقد تأكدت بالبرهان القاطع ان هناك عاطفة دافئة في داخل الرجل الذي يلبس درعاً.

سحر القمر. كل ما حصل معها سببه هذا السحر، ولا شيء خلاف

ذلك. اغمضت عينيها واستسلمت للنوم قبل ان يتمكن منها فارس دانكريفان ويقضي على راحة بالها للأبد.

٥ـ انقاذ أم ورطة

استفاق ديرميد يغني كعادته عندما يستفيق في الصباح. ذهبت اليه ساندي وأخبرته ما حصل لوالدته. تقبل الانباء بهدوء ثم وضع يده الصغيرة في يدها وقال:

«ستهتمين بي يا ساندي، اليس كذلك؟».

اخذته الى المطبخ من اجل الفطور. اخبرتها نان ان ليماند قد اتصل بالمستشفى يسأل عن مرتا. انها علامة حسنة، ان يهتم ليماند في امر مرتا، مع انه كان دائماً يظهر عكس ذلك.

«كيف حالها؟» سألتها ساندي.

«صحتها جيدة مرتاحة، يمكنك زيارتها بعد الظهر. ليماند يقول انه سيصحبك مع ديرميد لزيارتها بعد الظهر في سيارته».

«هل يعني ذلك انك لن تذهبي في نزهة بحرية برفقتي انا ورون؟».

سأل جوني وهو يجلس في مكانه المعتاد الى الطاولة. شعره بدون تمشيط وعيناه حمراوان اشارة انه اطال السهرة الليلة الماضية ولم ينم كفايته. كان مكشراً كعادته في ضحكة عريضة.

«يجب ان ازور مرتا مع ديرميد لأطمئن عليها. اعتذر يا جوني. يمكنك دعوة فتاة أخرى لمرافقتك».

«لا اظن». ثم غمز لها بعينه اشارة تعني انه يعرف سراً وقال: «هل تمتعت بالمسير بصحبة ليماند في ضوء القمر؟ لقد غضب رون قليلا لما اكتشف انك تركت المرقص بدون ان تخبريه».

«لم اقصد ان أتركه. خرجت لاستنشق بعض الهواء النقي. لقد كان

الجو خانقاً داخل القاعة من كثرة الازدحام. لما عدت كنتما قد خرجتما. أظن أن رون وجد صديقة غيري ترافقه».

«لا. ليست صديقة خاصة. هي شيلا غرالت التي عادت الى كيركتون في عطلة قصيرة. دعتنا لزيارتها في منزلها. وأنت أيضاً كنت مدعوة معنا. اعتقدنا ان لديك مشاريع أفضل». وعاد يغمز بعينه مرة ثانية. احست بحمرة الخجل تعلو وجنتيها. «ستبقين فترة اخرى هنا لأن مرتا طريحة الفراش. أليس كذلك؟».

«لا أعرف بعد. هذا يتوقف على دعوتي للبقاء».

«ولكن، من يرعى ديرميد اذا تركت؟».

«والدتك ناث؟».

«لا اعتقد انها تستطيع. ستذهب الاثنين المقبل لزيارة شقيقتها في سكاربورو منذ أشهر وهي تخطط لهذه الزيارة. لقد اتفق ليماند مع زوجة ويلي برودي لتحضر كل صباح لتساعد في التنظيف والطبخ ولكنها لا تستطيع المبيت هنا، ولا رعاية ديرميد».

«اذن، اصطحب ديرميد معي الى هامشير عند عودتي».

قالت نان:

«من المؤسف ان تأخذيه الآن، بعد ان بدأ يعتاد علينا. منزل الصغير هنا، حيث ترى والده. انا متأكدة ان ليماند سيطلب منك البقاء لتساعديه».

لم تكن ساندي متأكدة من ذلك. بعد الظهر، ذهبت الى المستشفى برفقة ليماند. كان كعادته منطوياً، قليل الكلام وتصرف كسابق عهده، كأن لا شيء بينهما قد حصل الليلة الماضية... ربما لم يحصل اي شيء. كلها اوهام بل احلام. منذ وصلت الى دانكريفان والفارس الاسود يتقلدها من اخطار تحيق بها. عليها ان تتحاشى ليماند وتتصرف هي ايضاً كأن لا شيء قد حصل البارحة. لقد حضرت الى دانكريفان من أجل هدفين، أولاً: تأمين مصاريف تعليم ديرميد. ثانياً: زواج مرتا من ليماند.

وجد ليماند مكاناً ليوقف سيارته قرب المستشفى. طلب من ساندي أن تنتظره قليلاً في السيارة. عاد بعد خمس دقائق يحمل ورداً أحمر، وعنباً وعلبة شوكولاته. انها علامة ثانية حسنة من ليماند. سرت لاعتقادها ان مرتا

نجحت اخيراً في اجتذاب ليماند.

تقع المستشفى في ضاحية كيركتون، نظيفة وهادئة جداً. في الغرفة، كانت مرتا مستلقية ورجلها اليمنى معلقة قليلاً الى اعلى، تحيط بها الضمادات والاربطة. وتبدو جميلة للغاية بالرغم من كل ما قاسته من تعب وألم. وجهها الشاحب يحيط به شعرها الاحمر اللامع.

فرحت مرتا كثيراً برؤيتهم. ركضت ساندي ديرميد لوالدته لتقبله ثم انحنت على مرتا تعانقها. فتحت مرتا ذراعيها لاستقبال ليماند. تردد قبل ان يقترب منها وقبلها على خدها ثم قدم لها باقة الورد الاحمر التي كان يخفيها خلف ظهره حين دخل.

«ما اجملها. كيف عرفت اني مولعة بالورد الاحمر؟». قربتها من أنفها، شمتها ثم قالت مخاطبة ساندي «خذيها وجدي لها مزهرية».

فتحت ساندي العنب كما قدم ديرميد علبة الشوكولاته. جلس ليماند على كرسي قرب سريرها وحمل ديرميد وأجلسه على ركبته. كانت مرتا تثرثر معه. منظر عائلي أليف. اي شخص يدخل الغرفة سيعتقد انهم أب وأم وابنهما...

«انها نعمة، بعد كسر رجلي، ان احظى بهذا الاهتمام من الجميع؟ أليس سخيفاً ان اكسرها؟».

سألتها ساندي.

«كيف كان الكسر؟».

«الكسر فوق الركبة، وهذا السبب هي مشدودة الى اعلى. قال بيل ان علي البقاء في المستشفى من عشرة ايام الى اسبوعين». نظرت تخاطب ليماند وقالت: «انا متأسفة جداً. يجب أن تبقى ساندي هنا فترة أخرى لتعتني بديرميد».

نظرت ساندي الى ليماند. ردّ عليها بنظرة ساخرة بعد ان ضيّق عينيه قليلاً كأنه يفكر ان مرتا قد كسرت رجلها عن سابق تصميم، كي تبقى ساندي فترة أطول في دانكريفان. لكن ساندي اعترضت تقول:

«يمكنني ان آخذ ديرميد معي الى هامشير يوم الاربعاء».

خيّم صمت ثقيل. عبست مرتا. كان ليماند يفكر تفكيراً عميقاً. مال بكرسيه الى الوراء ولم ينظر الى أحد.

«لا أريدك ان ترحلي!» قال ديرميد «لا أريد الذهاب الى هامشير. أريد البقاء هنا لأذهب الى الشاطىء كل يوم والعب مع لورنا وايوان!».

«من الواضح ان ديرميد قرر» كان تعليق ليماند على الموقف برمته. عيناه السوداوان كانتا خاليتين من أي تعبير. ثم نظر الى ساندي وقال: «الرأي هو رأيك. هل من الممكن ان تبقي في دانكريغان وتهتمي بديرميد لحين شفاء مرتا».

«ارجوك يا ساندي، قولي نعم. سأشفى بسرعة اذا تأكدت ان ديرميد قربي وانت تهتمين به».

لا يمكنها الرفض حتى ولو كان ليماند يعارض بقاءها. عليها ان تبقى من أجل الصغير فقط.

«نعم أستطيع».

«هل من شروط جديدة؟» سألها عن الاتفاقية الجديدة. نظرت في عينيه ورأت ومضة شيطانية سريعة جعلت نبضها يسرع. قالت:

«شرط واحد فقط».

«ما هو؟».

«سأبقى، شرط ان تسمح لي بان احفر خلف الحصن او جانب التلة قربه. افتش عن بقايا أثرية تبرهن ان هناك حصناً قديماً في دانكريغان يعود تاريخه الى القرن السادس».

تبادلا النظرات لدقائق كأن لا أحد معهما في الغرفة...

«يمكنك ذلك متى رغبت، ولكن لا تتعمقي كثيراً، ثم لا تحفري مكان المزروعات. عليك الانتباه الى ديرميد والمساعدة في أعمال المنزل في غياب نان».

«وهل سترحل نان؟» استغربت مرتا «لم اكن اعرف. متى ستعود؟».

«لست متأكداً». قال ليماند واكمل «ستبقى مع شقيقتها بضعة اسابيع. لديها النية في مشاركتها في ادارة الاوتيل التي تملكه اختها».

سألت مرتا مهمومة:

«من سيدير المنزل في دانكريغان في غيابها؟».

«يا زوجة أخي العزيزة لم تتفق بعد على ذلك». قال هذا ثم وقف ليخرج «مبدئياً السيدة برودي ستعمل بعض الوقت في الصباح. لدي الآن

موعد عمل. سأترككما لتثرثرا. سأعود بعد نصف ساعة. سأراك يا ساندي مع ديرميد في مدخل المستشفى. نظر الى مرتا ثم قال: اعتني بنفسك. افعلي كل ما يأمر به الجراح. هو يعرف ما هو أفضل لك. أراك فيما بعد».

نظرت مرتا الى ساندي مستغربة كل هذا اللطف، عن غير عادة.

«ما الذي غيره؟ كم هو لطيف. كدت اظنه زوجي كروفورد. هل لديك أي تفسير لهذه التغييرات؟».

قالت ساندي مستغربة:

«ربما لأنني اخبرته عن رغبتك؟».

سألت مرتا:

«ماذا تقصدين؟». اعتقد أنني بعد هذه الحادثة أصبحت لا أفهم بسرعة. وقعت البارحة على مؤخرة رأسي بالاضافة الى الكسر في رجلي ربما هناك شعر بسيط في رأسي. قال بيل انه يندمل ببطء. ساندي ان بيل لطيف للغاية. بدأت اعتقد ان الحادثة التي حصلت لي كانت نعمة هبطت عليّ من السماء. ليماند جلب لي الورد وبيل يهتم بي كثيراً... ماذا قلت له عن رغبتي؟».

«هل تذكرين عندما سألني ليماند ما اذا كنت اكيدة من انك لا ترغبين شيئاً آخر غير تعليم ابنك؟».

«نعم اذكر...».

«لقد اخبرته انك ترغبين في الزواج مرة ثانية!».

سألت مرتا

«كيف كانت ردة الفعل عنده؟».

«لست متأكدة، لم يقل شيئاً. ربما هنا تكمن أسباب تغييره اليوم. اعتقد انه شغوف بك يا مرتا ويخفي عواطفه عنك لانك ترملت منذ فترة قصيرة. هو ايضاً لا يعرف شعورك نحوه».

حدقت مرتا بها ثم ضحكت ضحكة هستيرية.

«ربما تكونين على صواب».

«اعذريني لأنني اخبرته. كنت سأسافر بعد أيام قليلة. ظننت ان اعلامه برغبتك قد يساعده في الاسراع باتخاذ القرار المناسب ليحلّ المشكلة المتعلقة

بثلاثتكم، هو وأنت وديرميد».

«وربما هذا يساعده على المدى البعيد». تمتمت مرتا وقد ظهر العبوس على جبينها.

«هل انت تعبة؟» تعجبت ساندي لماذا أثار حديثها غضب مرتا وكانت تنتظر ان تراها مهللة فرحة لانها انتصرت عليه أخيراً. لقد وجدت نقطة ضعفه. لقد تأكدت بما لا يقبل الشك، انه انسان دافئ، يتفاعل مع عواطفه واحاسيسه كأي رجل عادي. وما تصرفاته القاسية وبروده وعدم اكتراثه سوى اقنعه يختفي خلفها الرجل الحقيقي.

«اني تعبة قليلاً (تنهدت) لقد قال بيل بأنني سأشعر بتعب من جراء الحادث، ناتج عن الألم الذي كابدته... هل هيلين هي التي انبأتكم بأنني وقعت؟».

«نعم. كنا قد وصلنا لتونا من مرقص القرية».

«من؟» أحست مرتا ان في الجو مغامرة عاطفية.

«انا وليماند». اجتهدت ساندي ان تخفي حمرة الخجل عن وجنتيها حين تذكرت ماذا كانت هي وليماند يفعلان ساعة وصلت هيلين بالخبر.

«آخر مرة رأيته كان في الفندق يشرب برفقة الساقية الشقراء. اذكر انني قلت وقتها انه يشبه شقيقه في تصرفه في هذا الحقل أيضاً بالاضافة الى الشبه في شكليهما... ثم حصل تبادل في حلبة الرقص، أليس كذلك؟» سألت مرتا.

«نعم» أجابتها ساندي بصوت خفيض «فقط ليسألني عنك. كان قد رآك مع بيل لندسي وأراد أن يعرف مني كيف توصلت لتوطيد هذه الصداقة».

«أوه. أرجو أن لا تقف الخصومة بيني وبين بيل وتجعل صداقتنا صعبة. أتمنى ان لا يعتقد ليماند ان له الحق في اختيار اصدقائي ايضاً».

«لا. لا أظن ذلك. انه فقط يتعجب كيف وجدت اصدقاء من تلك الضاحية. الظاهر أن والدة هيلين، في الماضي، لم ترض عن صداقة قامت بين هيلين وكروفورد. ربما كان هذا هو سبب تصرف هيلين الغريب وصدها لك وتعليقاتها الغريبة».

«وتظنين أنها تغار مني لأنني تزوجت كروفورد وفشلت هي؟»

«هذه هي الحقيقة».

«فكرتك صائبة يا ابنة عمتي الصغيرة. ان هيلين تغار مني لسبب آخر غير هذا السبب».

كان ديرميد يأكل الشوكولاته لاهياً عنهما. طلبت مرتا الى ساندي ان تأخذها منه قبل ان يأكلها كلها ويمرض. ثم قالت له «عزيزي ديرميد الشوكولاته لي وليست لك؟».

بدأ ديرميد في نوبة صراخ وغضب لان ساندي اخذت منه الشوكولاته. وودّعت ساندي مرتا بسرعة بعد أن اخذت ديرميد الى الحمام حيث غسلت يديه ووجهه ونزلت به الى المدخل. لم يكن قد حان موعد رجوع ليماند بعد. أخذته الى الحديقة العامة القريبة من المستشفى، حيث لعب قليلاً وعادت أدراجها الى مدخل المستشفى. وهي في طريق العودة لمحت ليماند وبقربه هيلين يقطع الشارع عائداً الى المستشفى. اذن، هذا هو موعد العمل. لقد تمت ترتيبات هذا اللقاء بينهما الليلة الماضية.

«هل تأخرت؟» سألها ليماند. كان يبدو مرحاً على غير عادته. مشى قربها. تلفتت حولها لترى اين اختفت هيلين.

«دخلت الى المستشفى». كان ليماند عرف سؤالها بدون ان تسأل «ستعمل هنا لنهاية الاسبوع بديلة عن طبيب غائب في اجازة. ستقوم مؤقتاً في هذا العمل لحين أن تركز عيادتها الخاصة. ماذا ترغبين في أن نفعل؟».

«ماذا نفعل؟» تساءلت ساندي وهي تفكر في نفسها، كيف يمكنه وهو المتكبر الآمر الذي اعتاد ان يفعل ما يريد وعلى الآخرين ان يرضخوا لما يقرر ويرضوا به. هي المرة الاولى التي سألها رأيها.

«لدينا كل بعض الظهر وديرميد معنا. انا لا عمل ضروري لدي. هل ترغبين في التسويق؟» كان يفتعل المرح. انه ليس من طبعه. لا يستطيع ان يمشي خلفها من متجر لآخر وهي تتبضع وتشتري. رمقته بطرف عينها. حاولت ان تقيّم مزاجه الجديد. لم تر في عينيه السوداوين أي تعبير يساعدها على الفهم.

«هل تعتقد ان باستطاعتنا رؤية الركام (بقايا حصن رملي قديم)؟». سألها باستغراب كأنه يسمع الكلمة للمرة الاولى:

«ما هو؟».

«هي تربة عالية، ترتفع عن سطح الارض بضعة اقدام، ذكرها والدك في مخطوطاته التاريخية، وتبعد بعض الاميال من هنا. انه مكان تاريخي يوم كانت البلاد قسماً من المملكة. في هذا المكان كان الملوك الاقدمون يعقدون اجتماعاتهم العامة ويضعون القوانين. أحب أن أراها. انها من المواقع التاريخية المهمة هنا».

نظر اليها ملياً. ضاقت عيناه السوداوان قليلاً. ظنت، لوهلة وجيزة، انه سيرفض طلبها. ثم تبسم، وبالتالي ضحك قلبها، وأسرع في ضرباته. . .

«كان علي ان أعرف مسبقاً أن التسويق لا يروقك. . . نذهب الى الركام الذي قرأت عنه حتى لا تتهميني، مرة ثانية، بانني لا أهتم للماضي».

جلست ساندي في المقعد الأمامي ومعها ديرميد. كانت تتابع المناظر حولها باهتمام وتراقب وجود تلة من التراب وسط الحقول. بدأ الركام يظهر من بعيد. التلة مرتفعة اكثر مما انتظرت. . . جوانب الركام منحدرة وقمته مسطحة.

أشارت ساندي:

«ها هو الى اليمين».

«يمكننا ان نوقف السيارة بالقرب منه. الطريق خالية من السير».

المكان حولها خال تماماً. كانت أول خطوة خطتها ساندي بجانب الحائط الحجري القديم والذي يشكل طرف الركام. شعرت ساندي بالشعور نفسه الذي انتابها يوم زارت حصن دانكريغان، كأنها تخطو الى التاريخ، الى العصور الماضية. رائحة أعشاب وأزهار برية، وصوت قبرة تغني في الهواء النقي، مياه النهر تعلن نغماً في انسيابها، اختفاء ضجيج السير يعزز دقة الحس، حدقت في الركام أمامها. للحظة تخيلت حشداً من الناس قد حضر ليرى ويسمع اصدار الاحكام على كبار المجرمين.

«هنا كانت محكمة العدل في الزمن الماضي».

«اكملي درس التاريخ». كان ليماند يضايقها. أجفلت. عادت للواقع. «بالحقيقة انني أجهل هذا المكان ولكنه مثير. ماذا يمثل لك؟».

«أنه مثل مدهش لبقايا حصن قديم. القسم الأوسط للركام مع القمة المسطحة يشكلان القسم الأساسي للحصن. حوله المحكمة وملصق بها

منصة الحكم. تحتها الخنادق التي تملأ بالمياه لتحمي الحصن من الهجمات والاعتداءات. لقد استغرق بناؤها زمناً طويلاً أو ربما استنفد المئات من العمال».

«هل يوجد ما يشبه الركام في حصن دانكريغان؟».

«ليس منظوراً. والدك ومن قبله ماسح اراضي محلي كانا يؤمنان بوجوده. لقد وجد والدك بقايا بعض الآثار التي تؤيد نظريته. ألم يخبرك بما وجد؟».

«كلا. جميع حفرياته تمت بعد رحيلي منذ ١٢ سنة. اتصالي معه لم يكن على مستوى علمي. لما عدت قبل سنتين ونصف تقريباً كان قد أصيب بنوبة فالج شلته عن الكلام السوي. هل تعرفين ماذا وجد؟».

«دبوس للزينة وكتلة خزفية معدة للصب في أشكال مختلفة».

«انت ترغبين في المزيد من الحفريات لعلك تعثرين على أدلة جديدة».

«نعم. لقد وعدني رون كارسون أن يجلب لي صوراً فوتوغرافية، اخذت من الجو، للمنطقة كلها، يوم كانت تحت سلطة والده. اذا نظرنا في هذه الصور يمكننا الجزم بوجود أشكال مشابهة للركام والتي تبرهن بدورها على وجود مستوطنين قدماء يعود تاريخهم الى القرن السادس».

«فهمت» ونظر الى أعلى الركام الذي يرتفع كالبرج.

«لو أعثر على الدبوس والقطعة الخزفية التي وجدهما والدك في حفرياته؟ هل لديك فكرة أين يمكن أن تكونا؟».

«انظري مجدداً داخل المكتبة. من المؤكد انها هناك».

بينما كانت تثرثر مع ليماند، اخذ ديرميد يتجول في المكان لوحده. رآه يقفز بين العشب باتجاه النهر.

«انتبه يا ديرميد» صرخت وركضت لفورها خلفه. اقتربت من ضفة النهر. سمعت صوت المياه تنصب من الأعلى ثم شاهدت شلالاً صغيراً تتدفق مياهه من علو بضعة أقدام، في بركة صغيرة. اراد ديرميد أن يرى الشلال. تعثر بجذع شجرة ووقع في البركة.

لم تكن المياه عميقة ولكن المياه كانت تلف بعد انحدارها من الأعلى وتشكل تياراً لا يستطيع الصغير مقاومته. حملت المياه جسمه الصغير وجرفته الى مصب النهر.

«ساندي!» صرخ طالباً مساعدتها. بدون تردد نزلت خلفه في النهر.
كانت مياه النهر تصل الى خصرها. تحركت بسرعة نحوه. كان يحرك رجليه كما علمته في دروس السباحة سابقاً دقائق قليلة ثم وصلت اليه وامسكت به. كان كتلة مبللة. احاق بكلتا ذراعيه عنقها. بدأت تسير نحو الضفة ولكنها انزلقت، وبالتالي فقدت توازنها. جلست وسط الماء. وجد ديرميد ان الوضع الجديد ليس آمناً. بدأ يصرخ طالباً النجدة. لم تستطع الوقوف من جديد. كلما حاولت النهوض كانت تنزلق من جديد. كان الصغير يعوقها عن النهوض. قال تطمئنه:

«امسك بي جيداً يا ديرميد. هذه المرة سننهض».

وبالفعل استطاعت ان تقف هذه المرة لأن ليماند وصل لنجدتها. أمسك الصغير وحمله. ولدهشتها ذهب ديرميد لتوه الى حضن عمه ولف ذراعيه حول عنقه كأنه شعر ان الأمان لديه. وصل ليماند بالصبي الى الضفة ثم عاد ليساعد ساندي.

كان شكلها فوضى. خلعت حذاءها لتفرغه من الماء. ثوبها مبلل لنصفه. وشعرها أصابه البلل. أما ليماند فقد حافظ على كامل اناقته المعتادة. خلع حذاءه قبل ان ينزل الماء وكذلك خلع سترته ورفع رجلي بنطلونه الى اعلى.

وضع ليماند ديرميد على ركبته يخلع عنه الثياب المبللة ثم خلع ليماند كنزته السوداء وألبسها للصغير. ونظر الى ساندي وقال:

«آسف. ليس لدي أي شيء ألبسك اياه».

«اوه. لا يهم. انا بخير. شكراً لانقاذي مرة ثانية من الخطر».

«كنت اليوم انت المنقذة. من حسن حظ ديرميد انك سريعة الحركة».

نظر الى ثوبها المبلل، قدميها العاريتين، الى شعرها المبلل وقال «انك تذكريني بانسانة كنت اعرفها».

«من هي؟».

«تذكريني بوالدتي... أنا لا أقصد أنك بالنسبة الي تمثلين الأم بحنانك او انك تشبهينها بشكلك... انك سريعة الحركة في المواقف الحرجة، انك مندفعة بل متهورة. لست أنانية، متحمسة للتاريخ. هي أيضاً مثلك مندفعة ومتهورة وكانت متحمسة جداً للابحار وقد قادها حماسها للغرق».

«وهذه أول مرة تذكرها».

«كنت أنا واخي كروفورد في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا لما غرقت. اني اذكرها جيداً...» قام واقفاً بعد ان وضع ديرميد على كتفه واكمل «تركت سترتي وحذائي فوق. نلملمها ثم نعود للبيت. لقد تعب الصغير».

في طريق العودة جلس ديرميد في حضن ساندي. الصمت خيم على الجميع. كانت ساندي تفكر وتحلم بالركام ثم بفيليدا والدة ليماند والتي لم تعد شبحاً يخيف بل تجسدت امرأة عاشت بحماس وماتت وهي تتابع حماسها... ثم فكرت في هيلين لندسي ثم في مرتا. أرادت ان تثير ليماند. اخبرته ان الورد الأحمر قد أعجب مرتا كثيراً. لم يجب بأية كلمة. اكتشفت انه بدأ اعتزاله من جديد. تعجبت في نفسها كيف رضي ان يأخذها الى الركام. تذكرت ما حدث معهم وقررت انه سوف لن يأخذها لأي مكان آخر. ضحكت ساخرة من نفسها وقالت، من الآن فصاعداً سيبتعد عني لانني ميالة للوقوع وقد تعب من انقاذي.

حين وصلت الى المنزل شعرت بسعادة كبيرة، وراحة بال. انه امان وراحة. اصرت نان على ان تحمم الصغير بنفسها. طلبت الى ساندي ان تسارع في تغيير ثيابها المبللة. خلال الطعام سردا على نان اخبار مرتا ثم زيارتهما الاثرية للركام. بعد الطعام اخلدت ساندي ديرميد لغرفته لينام. نام لفوره. عادت الى المطبخ لتشرب فنجاناً من الشاي مع نان. خرج ليماند بعد العشاء، وجوني ما يزال في كريغان.

«اخبرني ليماند انك مسافرة ومن الممكن ان تستقري في سكاربورو وستعملين في فندق شريكة لشقيقتك».

«كانت تصر عليّ منذ فترة. في الماضي لم اشأ ان اترك كافن لوحده. الآن لا أحد يحتاجني. جوني كبر ويستطيع ان يعتني بنفسه وليماند سيتزوج قريباً».

سألتها ساندي بلهفة

«حقاً هل هناك فتاة معينة؟».

«لا أحداً يعرف ما في داخله. هو كتوم، كوالده، ولا يحب ان يشاركه الآخرون في اسراره. ولكنه لا يستطيع ان يعيش بدون رفقة امرأة. هو

هادىء وبارد الطبع ولكنه يحمل دماً حاراً في عروقه، دماء كالدويل».

فكرت ساندي في وضع نان. هل كانت عشيقة كافن. انها ايضاً تحمل دماء كالدويل في عروقها ومن الطبيعي ان يكون دماً حاراً، في صباها.

وأخبرني ليماند ان والدته كانت تحب الابحار ومتحمسة له». قالت ذلك تجر نان للحديث عن فيليدا.

«هذا صحيح. لقد كانت دائماً حاضرة للنزهات. كانت الحياة تدب في عروقها. شجعها كافن على هوايتها في الابحار واشترى لها مركباً لهاه

«طبعاً. لما كانت شابة يافعة كانت تحضر دائماً الى هذا المنزل من أجل التوأمين لتلعب معهما. منعها اهلها من القدوم الينا بعد موت فيليدا. كانت تلتقيهما خارج البيت. ولما كبرت سافرت ولم تكن لتعود الآ في العطل المدرسية مثلهما. كانت تحضر الى هنا وتسألني اين تجدهما؟ كأني اعرف؟ انها كالنسران، ولم يسلم احد من شيطنتها. سمعت ان هيلين عادت من الخارج وهي التي اخبرت ليماند عن حادث مرثا. ستعود. انها هنا في مستقبلك. احذريها. انها صاحبة مقالب وربما تسبب لك المتاعب».

هادىء وبارد الطبع ولكنه يحمل دماً حاراً في عروقه، دماء كالدويل».

فكرت ساندي في وضع نان. هل كانت عشيقة كافن. انها ايضاً تحمل دماء كالدويل في عروقها ومن الطبيعي ان يكون دماً حاراً، في صباها.

«أخبرني ليماند ان والدته كانت تحب الابحار ومتحمسة له». قالت ذلك تجر نان للحديث عن فيليدا.

«هذا صحيح. لقد كانت دائماً حاضرة للنزهات. كانت الحياة تدب في عروقها. شجعها كافن على هوايتها في الابحار واشترى لها مركباً لهذه الغاية. كانت الاشاعات كثيرة حولها. لأنها تمضي الصيف كله في نادي اليخوت، يومياً مع شلة من أصحابها. تكلم الناس عنها وعن اصحابها من الرجال الذين عرفتهم. لم تكن تابه ابداً لكلام الناس. كانت متهورة ومندفعة. ولما اشترى ستيوارت لندسي مركباً جديداً وأراد ان يجربه، لم يتقدم لمرافقته في ذلك اليوم غيرها. كانت الرياح شديدة عاتية...».

«هل ستيوارت قريب ليل لندسي؟».

«انه والده. يمكنك ان تتصوري الفضيحة حين عثر على الجثتين في المصب. كانت الاشاعة التي دارت، أنهما كانا في صدد الهرب سوياً. هذا ما كسر قلب كافن».

«هل في الاشاعة شيء من الحقيقة؟».

«من يعرف؟ انا اعرف فيليدا ولا أظن أن هناك اية صحة لها. فقط هي وستيوارت يعرفان الحقيقة. بموتها ماتت الحقيقة...» ثم قالت: «ستبقين هنا لترعي ديرميد لحين شفاء مرتا؟».

«نعم». كانت نان تحرك فنجان قهوة ساندي لتقرأ لها طالعها. سألتها ساندي: «ماذا ترين في فنجاني؟».

«أرى رجلاً اسمر، جميلاً، في طريقك. هذا لا يستغرب طالما انت في هذا المنزل. أرى امرأة طويلة، ليست ابنة خالك...».

«انها هيلين لندسي» خرج الاسم من بين شفتي ساندي بدون سبب معين.

«ما الذي جعلك تفكرين بها». نظرت اليها نان بتعجب.

«رأيتها اليوم بعد الظهر في المستشفى. رأيتها تتكلم مع ليماند. هل تعرفينها؟».

«طبعاً. لما كانت شابة يافعة كانت تحضر دائماً الى هذا المنزل من أجل التوأمين لتلعب معهما. منعها اهلها من القدوم الينا بعد موت فيليدا. كانت تلتقيهما خارج البيت. ولما كبرت سافرت ولم تكن لتعود الآ في العطل المدرسية مثلهما. كانت تحضر الى هنا وتسألني اين تجدهما؟ كأنني اعرف؟ انهما كالشيطان، ولم يسلم أحد من شيطنتهما. سمعت ان هيلين عادت من الخارج وهي التي اخبرت ليماند عن حادث مرتا. ستعود. انها هنا في مستقبلك. احذريها. انها صاحبة مقالب وربما تسبب لك المتاعب».

مر يوم الاحد. تلاه الاثنين. سافرت نان الاثنين الى دمفريز برفقة جوني. من هناك ستستقل القطار الى كارليزل ثم تغير الى قطار آخر يأخذها الى الشاطىء الشرقي. كذلك وصلت صباح الاثنين السيدة برودي من أجل تدبير المنزل في غيابها، الغسيل والتنظيف والطبخ. كانت ساندي متفرغة لديرميد ورعايته صباحاً. في اثناء قيلولته بعد الغداء، ذهبت ساندي الى خلف الحصن من أجل الحفريات. نظرت حولها متفحصة. لم تر اي شيء يدل على وجود ركام بالقرب من الحصن. عادت الى المنزل. ولما استفاق الصغير أخذته معها لجمع البيض وتعليبه. وبعد ذلك ذهبا الى الشاطىء ليلعب مع ايوان ولورنا لندسي. عادت في الخامسة لتحضير الشاي والعشاء. بعد العشاء اخذها جوني بسيارة ليماند الى كيركتون لتزور مرتا في المستشفى.

مرت أيام أخرى متشابهة. لم يحصل اي شيء غير طبيعي. في يوم ماطر، وجدت ساندي أن الفرصة سانحة لتدخل المكتبة تفتش عن الدبوس والعجينة الفخارية التي عثر عليها كافن كالدويل. جلبت لفورها أدوات التنظيف من المطبخ وحملت السلم الصغير من خلف الباب وبدأت عملية التنظيف التي وعدت ليماند ان تفعلها قبل ان يطلب خبيراً من المتحف لتقييم الكتب وآخر لتقييم الأثاث. كانت السلم مخربة نوعاً ما ولكنها تفي بالحاجة. صعدت السلم وبدأت في الرف العالي الى يسار المدفأة. كانت تأخذ كل كتاب تمسحه من الغبار وتضعه على السلم قرب رجليها. كانت تنوي ان تنظف الرف قبل اعادة الكتب اليه.

معظم الكتب الموجودة تبحث في تاريخ الجيش والحروب. تصفحتها. كانت منهمكة في القراءة حين خاطبها ليماند وهو واقف بالباب. اخافها

صوته فوقع الكتاب من يدها واحدث صوتاً مكتوماً.

سألته:

«ماذا قلت؟». مشى نحوها ليلتقط الكتاب عن الارض ويعطيها اياه.

منذ خرجا الى الركام، لم تكن تراه، الاّ وقت الطعام. عاد لانعزاله السابق. كان يلبس لباس العمل في الحقول وينتعل جزمة مطاطية. لو كانت نان موجودة لطلبت اليه ان يخلع جزمته قبل ان يترك المطبخ الى داخل المنزل!

«كنت اسألك اذا كان السلم آمناً».

«اعتقد ذلك. لكنني ما زلت بطيئة في عملي ولم أحرز تقدماً. ما زلت في الرف الأول. ان جميع الكتب الموجودة ملذة وأنا احاول أن أتعرف اليها».

«هل تخليت عن الحفريات؟».

«كلا. وجدت من الأفضل ان انتظر الصور الفوتوغرافية المصورة من الجو. آمل ان يجلبها رون الليلة، كما وعد. من خبرتي السابقة في هذا المجال، الصور تؤكد لي وجود مكان الركام وبالتالي يسهل عليّ تحديد منطقة الحفريات. دخلت افتش عن الآثار، وتذكرت انني وعدتك بتنظيف الكتب».

تمتم قائلاً:

«لست مجبرة على هذا العمل».

«اريد ذلك». شعرت فجأة أنه يراقبها بعينيه السوداوين. تلهت عنه بكتاب من على الرف وبدأت تنظفه.

سألها ليماند:

«ما هي آخر الانباء عن مرتا؟».

«انها تتحسن. لم يسمح لها بيل بمغادرة الفراش بعد. ربما يسمح لها بمغادرة المستشفى في نهاية الاسبوع المقبل. هذا يعتمد على حسن استعمالها للعكازين. ثم هناك بعض الترتيبات الضرورية. علينا تحضير غرفة نوم لها في الطابق الارضي. هل تعتقد ان باستطاعتنا تدبير هذا الأمر؟».

«أعتقد أننا نستطيع تغيير غرفة الطعام الى غرفة نوم لها. اطلبي من جوني مساعدتك لنقل الأثاث اليها». أجابها بدون اكتراث ثم رفع يده وأمسك بكتاب من الكتب المكدسة على السلم. أحنى رأسه ليتصفحه.

حدقت ساندي بشعره الاسود وهي تقول في نفسها: اي لغز هو ليماند. كان بامكانه ان يسألها عن مرتا خلال الطعام في الاسبوع الماضي. تعتقد انه لم يكن يصغي اليها حين حدثته عنها. سألته وهي تلومه بلطف.

«مرتا تتعجب. لماذا لم تزرها في المستشفى مرة ثانية؟».

«ولماذا أزورها مرّة ثانية؟». أجابها ببرود وهو يتصفح الكتاب. «انت تذهبين يومياً. كل ما ترغبه مرتا، اعرفه منك. الست الرسول بيننا؟ أليس هذا دورك؟». هو يذكرها بالاتفاق بينهما. تمنت لو تضربه بكتاب على رأسه. انه يضايقها. اكمل: «هل لديك رسالة جديدة لي؟». نظر اليها بمكر. شعر أنها تضايقت منه.

ردّت عليه بغضب.

«أنا... أنا لا أستطيع الاّ ان الفت نظرك!».

«لماذا؟ ماذا فعلت؟».

«انه شيء لم تفعله... يمكنني القول انك تجهل كيف تغازل امرأة».

سألها بمكر وسخرية.

«من عليّ مغازلتها؟».

«مرتا طبعاً. لا أستطيع مساعدتك اكثر. لقد اخبرتك عن رغبتها... البقية عليك. هي مستلقية على ظهرها في الفراش ولا تستطيع حراكاً. رجلها مكسورة. أما انت فتستطيع...» توقفت فجأة بعد ان شعرت انه يراقبها وفي عينيه ضحكة واضحة.

«اكملي، زيديني علماً وثقافة. اخبريني ما الذي عليّ القيام به؟».

«تستطيع مثلاً ان تزورها».

«لكنك قلت انها ستعود الى المنزل في نهاية الاسبوع. سأراها حينئذ».

«صحيح. ولكن ألا ترغب في الزواج منها؟».

«أنا لا اذكر انني قلت سأتزوج منها او من غيرها».

«لقد قلت لي منذ أيام انك ربما وجدت زهرة لتبقى معك. كذلك قالت نان انك ستتزوج قريباً لأنها لا تتصور أنك ستعيش هنا لوحدك بدون امرأة ترافقك درب حياتك...».

«وانت جمعت كالعادة حساباتك»! لاحظت انه تضايق كثيراً لأن خططه للمستقبل قد بحثتها مع نان. وأكمل بغضب شديد «اعتقد ان مرتا تدبر

خطة تؤمن بها لابنها ابا ولها مركزاً اجتماعياً من زواج ثان. وانت تفترضين ان اكون انا الزوج المرتقب». ثم اعاد الكتاب الى المجموعة. طوى ذراعيه على صدره ونظر اليها. كانت تعابير وجهه تتحداها. نظرت اليه ساندي مستسلمة وعرفت ان رأيه بمرتا لم يتغير. هي بنظره عنيدة، ماكرة ووصولية.

«لماذا اذن اهديتها الورد الأحمر؟».

«لا ينقصني التهذيب. هل من اللياقة الاجتماعية ان أزور مريضة في المستشفى ولا اقدم لها بعض الزهور. لو كانت نان أو حتى السيدة برودي لفعلت الشيء نفسه». ثم اكمل يسألها «اعتقد ان مرتا لم تأخذ الورد الاحمر على غير محمله؟».

«اعتقد... اعتقد انها فعلت ذلك». اجابته بهدوء «بعد ان نزلت من المستشفى قالت لي انك تغيرت في معاملتها، اصبحت لطيفاً... ظلت كروفورد تجلس قربها تحادثها». أصبحت تعابير وجهه متسلطة. «ذكرت لمرتا انني أخبرتك عن رغبتها في الزواج». انخفض صوتها الى تمتمة «لا بد وأنك تعتقد الآن أنني غبية؟».

«ليس ذلك فقط بل انك لا تجيدين جمع اثنين مع اثنين ايضاً. لماذا لا تكفين عن جمع المعلومات؟ كفي عن دفعنا الى ادوار لا نرغب بتمثيلها؟ انا اعتقد ان الزواج امر جدي للغاية. زوجة مثل مرتا ستكلفني اموالاً باهظة وانا ادقق في مصروفي لاوازن ميزانيتي. انها تحب ان تغمر بالهدايا. ترغب في تجديد اثاث المنزل دفعة واحدة ليصبح عصرياً. وانا لست مستعداً لأتكبّد مصاريف زوجة مثلها».

«الزواج يتطلب اكثر من... مصاريف». انفجرت ساخطة «هناك الحب والعشرة مع شخص يعجبك».

«بالطبع». أجابها ليماند وهو يضحك، «يمكنني الحصول على الحب والعشرة بدون رباط زوجي. او انك لا تعرفين ذلك؟».

«لم اعرف في حياتي رجلاً مشاكساً مثلك». تضايقت منه كثيراً. امسكت كتاباً لتضربه به. مالت السلم تحتها. تأرجحت في الهواء. اسرع ليماند وأمسك بها قبل ان تسقط الى الارض. ثقل جسمها المنهار قلب كيانه. اختل توازنه ووقعا ارضاً.

حاولت الافلات من قبضته لكن ذراعيه اطبقتا عليها بشدة. جذبها اليه ليوشوشها في أذنها قائلاً:

«انقاذ رقم خمسة يا جميلتي الساحرة. هذه المرة كان الخطر أقل. والانقاذ مثير. الا استحق مكافأة لانني جعلت من نفسي وسادة لك».

افكاره الجديدة جعلت رأيه واضحاً فيها. الحب والعيش بدون رباط زوجي يعني انه يستغلها.

«دعني اذهب».

«ليس الآن. لم تسنح لي فرصة مؤاتية لأجعل منك امرأة».

«ولا فرصة لك الآن ايضاً؟» اجابته بغضب وهي تحاول افلات يديه عن خصرها. ثم اكملت «لا ارغب في عناقك».

«اعتقد انك تريدين» قال ذلك وبسرعة أفلت يديه عن خصرها وأمسك بوجهها. نظرت اليه شبه مسحورة بينما كان يعانقها.

سمعت ساندي صوتاً بالباب، وكذلك سمع ليماند. تركها ونظر الى الباب. وكذلك نظرت هي.

دفع الباب ببطء ظهرت خلفه سيدة طويلة أنيقة ترتدي قبعة زرقاء فوق معطف ازرق المطر. كانت هيلين لندسي بالباب. تجمدت عيناها الزرقاوان وهي تحدق فيهما، يجلسان على الارض ملتصقين.

٦ - سأكون لك!

استغربت هيلين وضعهما:

«ماذا تفعلان؟»

«نمسح الغبار عن الكتب وننظفها» اجابها ببرود. نهض واقفاً وساعد ساندي على الوقوف واكمل «كانت ساندي تقف على السلم. مالت بها وسقطت». اصلح وضع السلم المقلوبة واسندها قرب الحائط قرب رفوف الكتب.

«اهكذا؟» رفعت هيلين حاجبيها مستغربة. شرعت ساندي تحمل الكتب وترفعها عن الارض في محاولة لاخفاء حمرة الخجل عن وجهها. اكملت هيلين: «قرعت الباب. ولما لم اسمع جواباً دخلت. ربما كنتما مشغولين فلم تسمعا...».

وقف ليماند يتسلى بالنظر اليها ولم يظهر عليه اثر لقلق او اضطراب. قال:

«ما سبب زيارتك الكريمة اليوم؟» سألها بسخرية «لا تقولي ان حادثاً آخر قد حصل!»

«لا. لا والحمدلله. مرتا تتحسن بسرعة. اليوم صباحاً بدأت تستعمل العكازين. فقط حضرت من اجل ديرميد. اود ان آخذه معي ليلعب مع لورنا وايوان بما ان الطقس ماطر ولا مجال للعب على الشاطىء، هذا، اذا وافقت يا ليماند.».

«ذهاب ديرميد يتعلق بمربيته. رتبي الأمر معها. اعذريني، حان الوقت لأعود لعملي. نبني مستودعاً جديداً. نحاول اتمامه من الداخل، بما ان

الطقس ماطر».

«ليماند!» نادته وهي تتبعه... سمعت ساندي وقع اقدامهما مبتعدين. اكملت عملية جمع الكتب من على الأرض. عليها ايجاد سلم امتن قبل ان تكمل عملية التنظيف. خرجت لتفقد ديرميد لأن وقت قيلولته شارف على الانتهاء. لم تر هيلين ولا ليماند. كان وجهها دافئاً. تذكرت تصرفها مع ليماند حين حاول عناقها...

سر ديرميد حين اخبرته بأنه مدعو ليلعب مع لورنا وايوان. نزلا حيث كانت هيلين تنتظرهما. كانت خارجة من المطبخ لتوها.

«اردت ان اتكلم مع نان. انها ليست بالمطبخ. هل تعرفين اين هي؟».

«الم يخبرك ليماند؟ لقد ذهبت الى سكاربورو لبضعة اسابيع».

«من يقوم باعمال المنزل اثناء غيابها؟».

«السيدة برودي تأتي كل صباح».

«وبعد الظهر؟».

«فقط انا».

«انت لوحدك مع ليماند؟».

«معنا ديرميد وجوني».

«هذا عمل طائش يا عزيزتي».

«لا بديل لدي. مرتا ترغب ان ابقى مع ديرميد هنا فترة بقائها في المستشفى وقد وافق ليماند».

«فهمت. لكن اياك ان تصممي على البقاء هنا الى الأبد». ثم التفتت الى ديرميد

«اهلا يا صغيري. هل تأتي معي لتلعب مع لورنا وايوان؟ لديهما العاب عديدة، ولنشرب الشاي برفقتهما. ما رأيك؟».

«اذهب معك فقط اذا حضرت ساندي برفقتي؟». ثم امسك بيد ساندي متعلقاً بها.

«فكرة جيدة. هل ترغبين في الحضور؟ سألت هيلين ساندي اخيراً. والدتي تستقبل اليوم بعض السيدات لتناول الشاي. يمكنك الانضمام اليهن. انه تغيير وافضل من مسح الغبار عن الكتب القديمة والوقوع من على السلم». كانت هيلين تشير الى انها لا تصدق القصة التي شرحها

ليماند.

«عليّ ان اسأل جوني اذا كان بامكانه ان يجمع البيض عني».

«اسرعي، اسأليه ثم غيري بنطلونك والبسي ثوباً او تنورة لأن جدتي ستكون في بروكفيلد وهي متحفظة وتحب الشكليات. انها تصر على ان تحضر النساء لتناول الشاي بأثواب او تنانير وتحب مرتا لأنها على حسب تعبيرها «سيدة»، ولا احب ان تخذليها».

اسرعت ساندي تفتش عن جوني. رضي ان يقوم عنها بمهمة تجميع البيض. غيرت ملابسها. لبست بلوزة كتانية خضراء اللون، اكمامها طويلة، وقبتها مفتوحة، مع تنورة واسعة خضراء اللون. مشطت شعرها بسرعة. قالت في نفسها: كم هي مقرفة، هيلين، ماذا تعني ان بقائي لوحدي مع ليماند ليس عملاً حكيماً. ثم كيف تطلب مني عدم التفكير بالبقاء هنا لوقت طويل. لا بد انها تشك في تصرفاتي، بل انني متأكدة انها تسيء الظن بي... ان الوضع الذي رأتني فيه لا يترك مجالاً للشك. ثم هناك شهرة آل كالدويل في هذا الميدان بالذات تعزز الظن بي... يحق لهيلين ان تعتقد ان علاقة غير شريفة تربط بين ليماند والمربية...

هذا ظلم. فقط لأنها فتاة عازبة تعيش لوحدها في منزل ليماند كالدويل ستتعرض لأن يلوك الناس سمعتها وتلاحقها الاشاعات والأقاويل. رمت الفرشاة من يدها. حملت حقيبتها ومشت الى خارج الغرفة.

ركبت مع ديرميد في سيارة هيلين الجديدة في طريقهما الى بروكفيلد.

«اشتريتها البارحة. انها تشعرني بالاستقلال والحرية. سأدخل شريكة مع الدكتور باركر في كيركتون وسأذهب في نهاية الشهر. عندما كنت ادرس الطب كنت اتمنى ان اعود لامارس المهنة هنا في منطقتي حيث جذور عائلتي. واخيراً تحقق حلمي هل زرت بروكفيلد من قبل؟».

«لا. لكن مرتا اخبرتني انه منزل فخم».

«هو كذلك. جدي بناه ليتقاعد فيه. كنا نعود اليه في العطل من غلاسكو. وكان جدي شريكاً في مصلحة نقليات ناجحة وقد ورث والدي حصته في الشركة. بعد وفاة والدي تولت والدتي مركزه في الشركة وبرهنت عن تصميم وعقل راجح في امور العمل».

كان المنزل مزوداً بأفضل الرياض والاثاث ويحتوي على جميع الادوات

العصرية التي من شأنها ان تجعل السكن مريحاً وسهلاً. كان المنزل نظيفاً ومرتباً للغاية مما يدل على وجود خدمة يومية وصيانة فعلية ولكن ساندي لم تشعر الدفء والحنان وروح الالفة والمحبة التي احستها في منزل دانكريغان.

آدا لندسي، والدة هيلين وارملة ستيورات، تشبه هيلين ببرودتها ونضارتها. شعرها الرمادي مصفف بتموجات بسيطة وعيناها الزرقاوان فيهما جمود. تلبس تنورة مكسرة وفوقها بلوزة وكنزة من اللون نفسه، بسيطة في اناقتها:

«انت لا تشبهين مرتا ابداً. اجلبي الصغير الى القاعة ليلتقي حماتي ثم يذهب ليلعب مع لورنا وايوان في غرفة اللعب».

غريس لندسي الجدة، على عكس كنتها آدا، تتميز بروح النكتة. النمش يكسو وجهها مثل حفيدها بيل. عيناها الرماديتان فيهما مكر وذكاء. ربتت غريس على شعر ديرميد الأسود وقالت وهي تتفحصه:

«لم اعتقد ابداً انني سأعيش لأرى حفيد فيلبدا كالدويل مرحباً به في منزلي. هو يشبهها اليس كذلك يا آدا؟».

«اظن انه يشبهها. لم ادقق في تقاطيعه بعد. تعال معي يا ديرميد الى غرفة الأولاد». قالت آدا. امسك ديرميد بيد ساندي كأنه شعر ان آدا ليست صديقة.

اصر ديرميد:

«تعالي معي يا ساندي».

«سآتي». قالت ساندي لآدا واظنه يشعر انه غريب هنا. سيتحسن عندما يصبح في غرفة اللعب مع لورنا وايوان».

«حسناً ولكن ارجو ان لا يتعلق بك كثيراً. سيأتي اليوم الذي تعودين فيه الى بلدك، اليس كذلك؟ لا اؤمن ان يترك الولد على هواه، ليستطيع تحمل الم الفراق وخيبات الأمل اكثر عندما يكبر».

كانت ساندي تود ان تبدي رأيها في هذه المسألة التربوية ولكنها فضلت ان تصمت. دخلت معه غرفة اللعب. رحب لورنا وايوان اشد الترحيب بديرميد. نسي لفوره تحفظه وانخرط يلعب معهما. كانت الآنسة دوبي، المربية، معهم في الغرفة. تكلمت ساندي معها قليلاً ثم عادت الى غرفة

الاستقبال بعد ان اطمأنت الى ان ديرميد يلهو مع لورنا وايوان.

حضرت بعض النسوة للشاي. جلسن يثرثرن. عرفتها هيلين اليهن. جلست ساندي قرب امرأة متوسطة العمر. قالت:

«التقتك ابنتي في فندق كريغان. كنت مع رون كارسون. اخبرتني انك ضيفة في منزل دانكريغان لرعاية ابن كروفورد الصغير».

احست ساندي ان كل العيون اجتمعت عليها.

«هذا صحيح».

«كيف تمضين وقتك هناك؟ اخبروني ان المنزل بال قليلاً والجميع يقول ان نان كوري لا تحسن تدبير المنزل». قالت احدى النساء الجالسات قربها.

قالت ساندي:

«احب العيش هناك. المنزل له ميزات وسحر عجيب».

«ربما وصفك هذا ينطبق على مالكه الحالي. اليس كذلك؟» قالت امرأة اخرى. وضحك الجميع على تعليقها.

احمر وجه هيلين ونظرت الى ساندي لترى ردة الفعل لديها.

«كيف هي نان في هذه الأيام؟ لقد تغيبت عن اجتماع المجلس الريفي الأخير بسبب المرض».

سألت امرأة في الطرف الآخر من القاعة.

«انها مسافرة، في سكاربورو. اليس كذلك يا ساندي؟» اجابت هيلين بالنيابة عنها. تنبه الجميع الى الموضوع الدسم المطروح ورغبن فيه المزيد من الثرثرة حوله. نظر الجميع الى ساندي، بعضهن بتعجب والبعض الآخر بمكر وخبث. كانت نظرات آدا وما فيها من جمود اكثر ما ارعبها.

للفور اتت غريس لمساعدتها، غيرت موضوع الحديث بلباقة وانقذتها من الستة النساء الثرثارات وقفل موضوع منزل دانكريغان ومالكه.

لم تشعر ساندي براحة وهي وسط هؤلاء النسوة. اغتنمت فرصة وقوف بعض النسوة للرحيل ودخلت غرفة اللعب. كان بيل قد وصل لتوه وبدأ يمرح مع الأولاد بصخب. طلبت اليه السماح لها ولديرميد بالرحيل. قال:

«اتركي هيلين مع الزوار. سآخذك بنفسي وسيذهب الأولاد برفقتي في نزهة صغيرة».

ودعت آدا ساندي على المدخل قائلة:

«عودي مرة ثانية. لم تتحدث بما فيه الكفاية. عودي لزيارتنا متى تشائين. بقاؤك موحش لوحدك في غياب ابنة خالك في المستشفى». ثم التفتت الى بيل وقالت: «ما رأيك لو تهتم بديرميد في غياب مرتا. ثم حين تخرج مرتا من المستشفى تمضي فترة النقاهة هنا. تستطيع انت رعاية مريضتك وتعود ساندي الى انكلترا».

«هل ترغبين في العودة الى بيتك؟» سألها بيل وهو ينظر اليها نظرة ماكرة.

«ليس هناك ضرورة قصوى لذلك. مرتا تعرف انني سأبقى هنا قدر ما ترغب».

تعجبت ساندي لماذا تصر آدا على رحيلها وقالت:

«اعرف ذلك. لكنني لا اريدك ان تبقي لوحدك في منزل دانكريغان في غياب نان. اظن انه لم يخطر ببالك ان الناس هنا رجعيون ومحافظون. كل شيء مخالف للعرف يثير الاشاعات. سأتركك... فكري بما قلته لك. مع السلامة».

وبعد ان ركبت ساندي سيارة بيل سألته بعصبية ظاهرة:

«هل يمكنك ان تخبرني لماذا امك وبقية النساء بالهن مشغول لأنني اسكن لوحدي في منزل دانكريغان؟».

«ما سمعته مؤخراً من والدتي، هي لا تحبذ بقاءك مع ليماند، محافظة على سمعتك واخلاقك».

«كنت اعرف ان هذا هو السبب. هذا ليس من العدل بشيء» نظر اليها بطرف عينيه. قال بيل بصوت جاف:

«نساء ورجال آل كالدويل معروفون بعلاقاتهم غير الشرعية مع الجنس الآخر».

«تقصد فيليدا كالدويل التي ذهبت في رحلة بحرية مع والدك. لم يتقدم احد غيرها لمصاحبته في تلك الرحلة المشؤومة. لسوء حظها غرقت معه... ثم نان كوري عاشت سنين مع كافن تدبر منزله».

«تماماً. انت ذكرت الحقائق كما وردت ولم تنظري الى ابعادها وخلفياتها. العديد من الناس ينظرون ما وراء الحقائق ويفضلون ما يثير لعابهم اكثر لينهشوا بألسنتهم، واذا لم يجدوا ما يثير، يقترحونه. وبسرعة تنتشر الاشاعات وتدور، والكل يقبل بها كحقيقة راهنة مسلم بها.

الاشاعات حطمت سمعة ابي وكذلك سمعة فيليدا كالدويل. . . لقد اهملت قصة ليماند والتي لم تكن ترتكز على ذرة من الحقيقة».

«كل ما اعرفه ان اللوم وقع عليه لشيء فعله شقيقه كروفورد». قالت ساندي.

«اذن. سمعت هذه الاشاعة ايضاً. يستطيع ليماند الآن ان يصحح نظرة الناس اليه ويبيض صفحته».

«هل يمكنك ان تخبرني القصة؟» سألته وهي واثقة انها تقتنص معلومات قد منعت عنها.

«احد التوأمين كان على علاقة غرامية مع سيدة متزوجة. المجتمع مغلق والكل يلاحظ اي شيء من هذا القبيل كما ان المرأة كانت من النوع الذي يتباهى بغرامياته. وزلق لسانها يوماً وذكرت اسم ليماند. ودارت الاشاعة واصبحت حديث المنطقة كلها».

قالت ساندي:

«لقد استعمل كروفورد اسم اخيه، يوم كان يلقاها».

«هي ليست الوحيدة التي خدعاها بهذه اللعبة! حتى اختي هيلين لم تسلم من حيلتهما تلك».

«كان على ليماند ان يذكر الحقيقة».

«اعرف. لكنه لم يفعل لأن احداً لم يطلب منه ذلك. لقد وصمه الناس بهذا العمل الأسود بعد ان غادر المنطقة الى كندا. اعتقد الجميع انه غادر بسبب تلك الاشاعة. الحقيقة انه غادر المنطقة بعد مشادات عاصفة مع والده. واتهمه الناس بالجرم غيابياً».

«اخبرتني نان ان سبب المشادة مع والده كانت بسبب ادارة مزرعة دانكريغان».

«انها على حق. كان ليماند يحب الزراعة واعمال المزرعة. قال لي مرة انه يزعجه ان يرى المزرعة تسوء وتبلى من سوء ادارتها. وهو على حق في ذلك. ويعرف بأنه سيرثها يوماً ما. كان توقيت المشادة خطأ. الجميع اعتقد ان والده سمع بعلاقة ابنه الغرامية مع مي برجيز فطرده من المنزل».

«وكيف عرفت انت ان كروفورد وليس ليماند هو الذي كان على علاقة مع مي برجيز؟».

«عرفت بها بطريق الصدفة، قبل سنين قليلة. كنت في نزهة بحرية، نزلت قرية صغيرة لأشرب قليلاً. كان كروفورد هناك. تكلمت معه. كنت على وشك الخروج حين دخلت مي برجيز مع بعض اصحابها. لم ترها منذ انتقلت، بعد افتضاح امرها، مع زوجها من المنطقة، منذ سنين عديدة. رأت كروفورد واقتربت منه تحدثه. سألته ماذا فعل منذ مغامرتهما الصغيرة. . . رأيت انه لم يفاجأ او يتلبك او يداري. ولما تركته، سألته: انت صاحب العلاقة غير المشروعة وليس ليماند؟ نظر اليّ ثم قال وهو يضحك. لقد سلمت نفسي. ماذا ستفعل بهذه الخبرية؟ هل ستخبر هيلين بها؟».

«لماذا سألك ذلك؟».

قال بل: «في تلك الاثناء كان زواجه من هيلين محتمل. كانت هيلين صديقة للتوأمين. اصدقاء طفولة. ولما لم اجب عن سؤاله قال لي: اخبرها: انا لا اهتم بهذا الأمر. لقد مر الزمان على هذه الحادثة وقد نسيها الناس. حتى لو اعلنت ما عرفته الآن لن يصدقك احد. . قال ذلك وغادر المقهى».

«هل اخبرت هيلين؟».

«لا. اخبرت والدي. ويا ليتني لم افعل. اتت كالسهم الى دانكريغان وقابلت كافن واطلعته على الحقيقة واخبرته رأيها بكروفورد كمرشح لزوج ابنتها. . . كافن رجل كبير وغريب الاطوار وقد نالت هذه القصة من كبريائه وخصوصاً من حبه الكبير لكروفورد. ساءه ان ابنه المفضل ترك شقيقه يلام على ما فعله هو. وحدثت بعد ذلك مشادة اخرى طرد على اثرها الابن الثاني واقسم والده انه لن يسمح له بالعودة ولقد نفذ قسمه. . . انزعجت هيلين كثيراً لغياب ليماند ورحلت بدورها الى اميركا الجنوبية».

انهى بيل القصة وكان قد وصل بسيارته الى المنزل حيث وقف ينتظر نزول ساندي وديرميد.

قالت ساندي:

«شكراً على هذه المعلومات التي ذكرتها لي. علي ان ادخل».

قال بيل: «مع السلامة. كنت دائماً اقول ان كروفورد وليس ليماند هو الذي كان على علاقة غير مشروعة مع مي. . . الآن بعد عودة ليماند

واجتهاده المثمر في دانكريغان، اظن اننا يجب ان نمنحه الفرصة ليعيش مرفوع الرأس. الاشاعات السابقة حول ماضي آل كالدويل كانت هدامة، ولم يستمعوا الى ما كان يقال عنهم».

«نعم. اعرف ذلك. ما يزال ليماند يحمي اخاه ولا يرغب ان يعرف الحقيقة احد».

«كان ليماند حسن السيرة دائماً. يساعد كروفورد في حل مشاكله. كان الأقوى بينهما. وطلبت فيليدا منه ان يرعى اخاه وقد اصبح ذلك عادة لديه. اما بشأن ما قالته والدتي، انها لا تقصد الا الخير. انها لا تحب ان يلوك الناس سيرتك ولا سيرة مرتا. ثم لا ترغب ان يسيء احد من آل كالدويل الى هيلين مرة ثانية».

«وهل يستطيع ليماند ان يسيء الى هيلين».

«لقد اساء اليها مرة يوم تركها وسافر الى كندا. حولت حينئذ عواطفها كلها الى كروفورد ولكنه تركها ورحل ايضاً. اليوم عاد ليماند وهي تتمنى ان تعود المياه الى مجاريها بينهما وذلك يكون اسهل بدون اشاعات جديدة وثرثرة واقاويل عنه».

«واذا بقيت هنا ستثار الاشاعات؟».

«نعم. افضل حل هو ان تخبري ليماند بعزمك على الرحيل وهو يتصرف».

دخلت ساندي المنزل. لم يكن جوني ولا ليماند هناك. حممت ديرميد ووضعته في فراشه ثم نزلت الى المطبخ. كان قد وصل لتوه جوني ومعه رون كارسون الذي قال لساندي:

«جلبت لك الصور الفوتوغرافية. ستعجبك وستجدينها مثيرة».

كانت ثلاث صور اخذت للمنطقة من الطائرة. الصور مكبرة وواضحة جداً. تفحصتها ساندي بعين خبيرة وتأكد لديها بما لا يقبل الشك أثر مدينة سلتيه في التلة خلف المنزل. ظهر لها واضحاً اثار مدورة تلف قاعدة الحصن بما يشبه الخندق. شرحت ساندي رأيها بحماس الى رون وجوني. قال رون:

«تستغرق الحفريات هناك اسابيع من العمل الشاق ولا يمكنك القيام بها لوحدك بل تحتاجين لمساعدة تقنية».

«انا لا استطيع الحفر بمفردي. احتاج لفريق من الخبراء في التنقيب. فقط استطيع الآن ان اتعرف الى الموقع واحدده. ربما ابدأ الحفر في سطح الأرض فقط حيث لا توجد مزروعات. وربما اجد شيئاً. شكراً يا رون على الصورة».

سأل رون: «هل من الممكن ان يبقى ديرميد في رعاية ليماند وتذهبين معنا الى الرقص هذا المساء؟».

«لا امل البتة. لن يفعل!».

«هل ذهب لزيارة زوجة اخيه في المستشفى. لو تستطيعين سماع الاشاعات بين الناس. الجميع يتساءل عمن ستكون السيدة الجديدة في منزل دانكريغان، مرتا ام هيلين؟ هل تعرفين من؟».

«لا. لو يكف الناس عن ثرثرتهم».

«كأنك تطلبين من الأرض ان تكف عن الدوران». ثم اكمل «سمعت ايضاً ان هناك مجهولة مرشحة لأن تكون السيدة الجديدة للمنزل، فتاة صغيرة لا خبرة لها...» قال رون وهو يضحك ويغمز بعينه.

«جوني، ارجوك اخرجه من هنا قبل ان اضربه». ضحكت ساندي.

«سأرحل. آسف لانك لا تستطيعين مرافقتنا الليلة. ربما نأخذ الصغير معنا في نزهة بحرية غداً تبدأ مع المد ونذهب الى وستيور نسبح هناك ونعود مع الجزر؟».

«لا بأس اذا كان الطقس مناسباً لهذه النزهة البحرية».

اعادت ساندي النظر في الصور مرة ثانية. الحفريات التنقيبية، ان تمت ستبرهن ان كافن كان على حق في نظريته بأن دانكريغان كانت مركزاً حضارياً قبل ان يحضر السير غاي ويضم اليه هذه الأراضي. زاد حماسها. تمنت لو كان كافن حياً ليرى صحة نظرياته. قررت ان تكتب الى ديريك سلون وتخبره عن اكتشافاتها بهذا الصدد. كانت رسالة طويلة شرحت له بالتفصيل اكتشافاتها واستنتاجاتها وشاركته بقصة دانكريغان التاريخية.

تركز املها كله في الحفريات علها تجد بعض البقايا الفخارية او دبوساً آخر للزينة. ثم عليها زيارة قبو الحصن والسجن فيه، وان تمشي النفق الذي يوصل الحصن بالشاطىء والذي استعمله المهربون، وعليها ترتيب المكتبة...

انتهت من كتابة الرسالة ثم عادت الى غرفتها تطالع المخطوطات عن تاريخ دانكريغان. وصلت الى الحروب بين انكلترا واسكوتلندا زمن روبرت بروس.

فارساً في دانكريغان حليفاً لملك اسكتلندا الذي كافأه بالأراضي والمزيد من السلطة. قصة غرامية جانبية تقول ان فارس دانكريغان احب ابنة احد السجناء الانكليز لديه... وقد انتهت القصة الغرامية نهاية سعيدة بالزواج.

مرة ثانية رأت حلمها يتكرر - الفارس الأسود نفسه ينقذها من الاخطار. هذه المرة كانت تركض على الرمال قرب المصب ترغب في العودة الى انكلترا. بدأت تغرق في المصب. وصلت المياه الى اكتافها وكادت تغمرها. حضر فجأة الفارس الأسود وامسكها من شعرها وخلصها. قامت من نومها مذعورة. كانت مبللة بالعرق. فتحت نافذتها فاذا الشمس الوردية تملأ السماء بنورها.

نزلت مع ديرميد الى المطبخ من اجل الفطور. كان ليماند ما يزال يجلس على كرسيه، منطوياً على نفسه في تفكير عميق. حين رأته تذكرت حلم الليلة الماضية. تعجبت: لماذا تحلم به دائماً؟ زادت ضربات قلبها. رغبت ان تترك المطبخ وتهرب منه. ولكن لماذا تتصرف على هذا النحو. ان تصرفاتها تشبه تصرفات مراهقة في اول معرفتها بأحاسيس الحب...

حاولت ان تتصرف باتزان. ثرثرت معه عن اكتشافاتها بعد ان رأت الصور الفوتوغرافية التي جلبها رون. قالت له انها جازمة الآن بوجود ركام خلف التلة في دانكريغان. استمع اليها يراقب حماسها وتعابير وجهها. كان نظره جامداً خالياً من اي تعبير.

«ماذا ستفعلين؟ هل ستحفرين؟».

«لا اعتقد انني استطيع ذلك لوحدي. احتاج لخبراء في التنقيب والمصاريف كبيرة. احتاج لفريق عمل يساعدني. يمكنني الآن ان احدد موقع الحفريات. اظن ان جمعية التنقيب عن الآثار المحلية تحضر وتطلب السماح لها بمسح المنطقة من اجل التنقيب فيها...».

«لا. لا اريد غرباء هنا يحفرون. سيتلفون المزروعات. ثم انت تعرفين رأيي في ان ادفن الماضي ولا انبش فيه». قال ذلك بعصبية ظاهرة. كأنه لم

ينم الليل بطوله من كثرة التفكير.

«حسناً». قالت ساندي. ما الذي يمكنها ان تفعل فالأرض ارضه وهو حر التصرف. كانت خيبة املها كبيرة.

«لن تحضر السيدة برودي لا اليوم ولا غداً. علينا ان نذهب الى كيركتون لنشتري مؤونتنا للاسبوع المقبل ثم نتغدى سوياً في الفندق وتزوري مرتا بعد ذلك». قال ذلك بسرعة.

«لن تزورها انت؟» ضحك لأنه تذكر توصياتها له في اليوم السابق وقال:

«ربما. اخبريني كيف كانت زيارتك الى بروكفيلد البارحة؟ هل استمتعت بوقتك وتعلمت الكثير عن تاريخ عائلة كالدويل الحديث وخصومتهم مع آل لندسي. لا بد ان هيلين وادا لديهم الكثير لاعلامك».

نظرت اليه. رأت الفرصة مؤاتية لتخبره عن اقتراح آدا بشأن بقاء ديرميد عندهم واسباب الاقتراح. كانت واثقة من ان القصة ستثير غضبه. كان صوتها منخفضاً حين بدأت:

«بالحقيقة، ان بيل هو الذي اخبرني القصة عندما كان يوصلني مع ديرميد بسيارته الى المنزل».

اتهمها مجدداً:

«وهل تصيدت المزيد من الاخبار؟».

«كلا. ليس عن قصد. اخبرني عن غراميات مي برجينز وكيف عرف هو ان كروفورد هو الذي تورط معها وليس انت. وكيف ادى ذلك الى الشجار بين كروفورد ووالدك حيث طرده من المنزل».

«انها اخبار قديمة ولا اجد نفعاً في تحريكها من جديد؟ على بيل ان يغلق فمه. لماذا اخبرك هذه القصة؟».

«رغب في توضيح شيء قالته لي والدته قبل مغادرتي منزلها... كم هو بشع. لقد اكتشفت انني اصبحت موضوعاً دسماً لثرثرة نساء البلدة».

«بما انك تعيشين في دانكريغان، حتماً ستصبحين موضوعاً لأقاويلهم. اخبريني ماذا قيل عنك؟».

«البارحة كان عند السيدة لندسي سيدات لتناول الشاي. شعرت من احاديثهن ان وجودي في دانكريغان في غياب تان ومرتا يجعلني هدفاً

لاشاعاتهن، كما وان هيلين ووالدتها اكدتا لي ان علي مغادرة البلد اذا كنت ارغب ان لا يتكلم الناس عني».

«فهمت الآن سبب قصة بيل. انه يؤكد لك ان اسم كالدويل موصوم بالسواد وكل من يرتبط بنا سيصاب من سوادنا».

«قال بيل ايضاً انه لحسن حظك انك كنت خارج المنطقة يوم وقعت التهمة عليك».

قالت ساندي ذلك ثم نظرت اليه فاذا هو كبركان من الغضب على وشك الانفجار.

قال: «ما علاقة آل لندسي بالموضوع. ما همهم ان كانت نان هنا ام لا؟ ليس من شأنهم ان يراقبوا ما يحصل في منزلي ومن ادعو للبقاء عندي. الآن بدأت افهم ما كان يدور في خلد هيلين البارحة. رأتنا نعانق بعضنا ليلاً يوم الحادث ثم رأتنا البارحة على الأرض في وضع غير عادي ولأننا وجدنا في المنزل، استنتجت فوراً اننا نعيش قصة غرام ملتهب». قال بحزم كأنه يتلو نشرة الاخبار.

«شيء من هذا القبيل».

كبرياء كالدويل وغضبه عادة تختفي وراء بروده وعدم اكتراثه. اما اليوم فكان ليماند لا يخفي شيئاً من طباعه.

«يا للنساء الثرثارات. لا عمل عندهن سوى تمزيق وتقطيع سمعة فلان او فلانة. اسف لما يحصل لك يا ساندي بسببي. اخبريني ما هو اقتراح آدا؟ اعتقد ان لديها خطة لتتخلص منك بسرعة». كان يتكلم بشكل يكشف عن كرهه الشديد لآدا لندسي.

«اقترحت ان يبقى ديرميد عندهم لحين خروج مرتا من المستشفى. ترعاه السيدة دوبي مع ولديها. اعود انا الى انكلترا وعندما تخرج مرتا من المستشفى تمضي فترة النقاهة عندهم حيث يرعاها بيل كونها مريضة، وحتى لا تبقى ايضاً لوحدها معك في المنزل». اكملت ساندي تحول ليماند الى برج من الغضب. جميع عضلات وجهه برزت. ربما كان والده في حالة غضب مشابهة يوم طرد ولديه من المنزل... وحين عاود الكلام معها كان قد استجمع هدوءه من جديد.

«انها شهامة من آدا. اليس كذلك؟ كيف كان وقع الاقتراح على

بيل؟».

«طلب الي ان انقله لك. يعتقد انك ستفعل شيئاً لوقف الاشاعات والأقاويل».

«هو قال ذلك؟ وانت، هل ترغبين في العودة الى انكلترا وتحافظين على اخلاقك وفضائلك من الشيطان. يعتقد الجميع هنا ان ليماند كالدويل شيطان اسود معتدي».

ضحكت ساندي من وصفه لنفسه وتأكدت انه فهم الوضع كله. وقالت:

«انني افهم الماضي واهتم به ولكنني اعيش في النصف الثاني من القرن العشرين. انا لا اعتقد انك ستعتدي على فضائلي... ولكن اذا كان رحيلي يساعد في عدم تلطيخ اسمك بالمزيد من السواد فسأرحل. ثم هناك رأي مرتا في هذا الموضوع. لقد وعدتها العناية بابنها فترة بقائها في المستشفى ولن اتركها قبل ان تجد بديلاً عني».

«سأزور مرتا بعد الظهر. حان الوقت لاتكلم وإياها بصدق. كنا نحور وندور حول الموضوع. كوني جاهزة في العاشرة لنذهب الى كيركتون».

لم ينتظر منها جواباً على اوامره. بدأت تنظف الطاولة. تساءلت ساندي في نفسها: اخيراً تحرك ليماند من اجل مستقبل الصغير. هل اقتراح آدا ليعيش مع آل لندسي هو السبب؟ هل سيطلب من مرتا ان تتزوجه؟ تذكرت ما قاله عن مرتا في المكتبة واستبعدت هذا الأمر. واذا اصر على طلب الزواج منها بالرغم مما قاله عنها عندئذ سيغضب هيلين...

المدينة مليئة بالسواح والمزارعين للتسويق. ذهبت وإياه الى السوبر ماركت حيث ملأ العربة بانواع عديدة من الاطعمة والمعلبات. كان يعرف تماماً ما يريد. ويستفيد من التنزيلات المعلنة هنا وهناك على بعض الاصناف. انهى مشترياته بسرعة كبيرة ووضعها في صندوق سيارته واكمل طريقه معها ومع ديرميد الى الفندق. كان يسلم على اصحابه ومعارفه ولم يعرفها اليهم. كانت تراقب معارفه ينظرون اليها بطرف اعينهم. ربما هو على حق بذلك... انه يخفف الاقاويل حولها. غرفة الطعام في الفندق كانت مليئة، تقريباً. مروا بسيدة عجوز بادرتهم قائلة:

«انت ارملة كروفورد وهذا هو ابنك الصغير».

صحح ليماند لها معلوما وقال:
«هي ابنة عمة زوجة اخي». ثم عرفها الى السيدة واسمها السيدة غرانت.
«نعم. سمعت جوني كوري وورن كارسون يذكرانها. كانا في منزلنا مع ابنتي منذ ايام. كنت ستحضرين معها ولكنك تركت المرقص وعدت الى المنزل مع ليماند». قالت السيدة غرانت ذلك وغادرت غرفة الطعام وتركتهم.
«من تعليقات بريئة كتلك، يقولها جوني وورن بدون قصد، تنطلق الاشاعات وتحاك الاقاويل، وبالتالي يسيء الناس الى سمعة فلان وفلانة. لقد قاست امي كثيراً من الاشاعات وبالطريقة نفسها». كان ليماند يخاطبها بألم ومرارة وهو يقرأ لائحة الطعام.
«من المؤسف ان لا حول لنا ولا قوة في اسكاتها». قالت ساندي.
«يمكننا ان نقف في ساحة المدينة ونصرخ بصوت مرتفع ونقول: الكل يرتكب اغلاطاً. ثم نقول لهم: نحن فقط اصدقاء ولسنا عاشقين!».
«وهل نحن اصدقاء؟» سألته وقد احمرت وجنتاها خجلاً بالرغم عنها.
«لقد فرضت علينا الصداقة في ظروف مثل ظروفنا. فقط انا وانت نعرف الحقيقة، نحن حلفاء».
تذكرت ساندي ما قالته نان عن فيليدا وستيوارت، انها لوحدهما يعرفان حقيقة علاقتهما... وقد غرقا سوية وبموتهما ضاعت الحقيقة. ارتجفت ساندي قليلاً وهي تتذكر. كان ليماند يراقبها عن كثب. فسألها:
«ما الذي حصل؟».
«كنت افكر بفيليدا وستيوارت...» ثم تلهت بالنظر الى لائحة الطعام. مال ليماند على الطاولة وكلمها بصوت منخفض حتى لا يسمعها احد وقال:
«يمكننا ان نفعل شيئاً مذهلاً ومتطرفاً ولكنه يضع نهاية للاشاعات والأقاويل ولو لفترة قصيرة». كان يخاطبها وعيناه تشعان بالمكر «لا اظنك ستوافقين. انت غير مستعدة لهذه الخطوة بعد».
«كيف تقرر اذا كنت اوافق او لا اوافق اذا لم تخبرني؟».
«اقول لك الحقيقة، انا لا اجرؤ. ستتهمينني باللؤم وستغضبين وربما

تنسحبين من هنا في ثورة غضب وانت تعتقدين انك قد اهنت».
«تقول نحن اصدقاء. يمكنك ان تخبر صديقتك بكل شيء» سألته بعد ان لمست نظرة حنان تلفها.
«وبالطبع انت صديقة. سأضع صداقتنا الجديدة، الملفقة في الاختبار. هناك طريقة وحيلة واكيدة لوضع حد للاشاعات المدمرة حول علاقتنا وهو ان نعلن خطوبتنا للجميع».
حضرت خادمة المطعم وطلب ليماند الطعام له ولها وللصغير بدون ان يسألها. لم تجادل. كانت ما تزال تستجمع رباطة جأشها. سألها ليماند بعد ان ابتعدت الخادمة.
«ما رأيك؟».
«كما تقول، انها خطة متطرفة نوعاً ما».
«لكنها فعالة».
«ربما».
«اذن توافقين!» كان خبيراً في الاقناع.
«لا. لا اوافق. لا استطيع. انها لا تنفع الا لفترة قصيرة. كما تعلم سأبقى هنا اسابيع قليلة لحين تخرج مرتا من المستشفى... ثم ماذا ستقول مرتا؟».
«لا يهمني ماذا تقول. لو لم تحضر الى هنا بدون دعوة... لو لم تدعك الى هنا بدون استئذان... لم يكن ليحصل ما حصل».
انه يؤلمها بكلامه الجارح. الحقيقة تؤلم. هو على حق. مرتا لم تهتم بأمره حين حضرت اليه مع ابنها وهو لن يهتم بأمرها. ثم لو لم تات الى هنا لما تعرفت الى ليماند ولما احست بلحظات سعيدة نادرة في ضوء القمر ولم تكن لتكتشف ابداً السعادة في ان تجد من يعاملها كامرأة بدلاً من كونها شيئاً لا جنس معين له. والأهم من كل ذلك كونها كسبت صديقاً جديداً...
قالت مهمومة:
«اعتقد ان مرتا كانت تمني نفسها بأن تطلبها للزواج. لو تطلب منها الزواج لتحصل ايضاً على النتائج المرجوة ذاتها».
عيناه السوداوان رمقتها بنظرة شفقة على صغر عقلها وذكائها المحدود. وقال:

«قلت لك البارحة ان حساباتك كلها خاطئة. ليماند ليس الاسم الوحيد الذي يبدأ بحرف «ل» انت على صواب في ان مرتا ترغب الزواج لمرة ثانية من اجل التأمينات التي يكفلها لها الزواج. لن تتزوج هذه المرة من كالدويل. انها تطمح برفاهية وراحة واستقرار اكثر من جيب «ردي» السمعة مثلي. لقد اختارت شخصاً مختلفاً هذه المرة. شعره احمر وليس اسود. سمعته العائلية نظيفة. غني يستطيع ان يتحمل مصاريف بذخها، سقفه لا يرشح واسم عائلته يبدأ بـ«ل». انه بيل لندسي»

هذه هي الصدمة الثانية لساندي هذا اليوم. استردت انفاسها بصعوبة وقالت:

«كيف عرفت، انها ترغب الزواج من بيل؟»

عيناه السوداوان تسخر منها. ترك صحن الحساء ليقول:

«وانا ايضاً استطيع ان اجمع اثنين مع اثنين وجوابي اربعة. اعرف ان بيل لن يتقدم ليطلبها للزواج قبل ان يطمئن الى انني سأتكفل مصاريف تعليم ديرميد. كنت امهل في قراري لنهاية الصيف. اليوم، وبعد ان بدأت السنة الاشاعات تطالك اجبرت على العجلة». توقف وكأنه يتسلى واكمل:

«ولكن كيف اتخلى عنك يا جميلتي الساحرة. علي ان اسرع لانقاذك من جديد... علي ان اسألك الموافقة على اعلان خطوبتنا».

نظرت اليه ساندي وهي مذهولة مما سمعت. نسيت صحن الحساء امامها. لم تعد تسمع الاصوات حولها في غرفة الطعام. كانت ترى فقط العينين السوداوين الباردتين لفارس دانكريغان ينظر اليها نظرة مكر وسخرية.

احس ليماند ارتباكها وهي تسمع صدى صوته وهو يكرر عليها اقتراحه بأنهما مخطوبان للزواج.

«لكنني لا اوافق على الخطوبة».

«حتى ولا من اجل مرتا كي تحصل على رغباتها؟»

«لا ارى كيف ستساعدها هذه الخطوبة في الحصول على رغباتها».

«انها تمكنها من الوقت اللازم. بذلك تستطيعين البقاء لنهاية الصيف بدون اشاعات او اقاويل. انا وانت فقط نعرف حقيقة خطوبتنا».

كانت تكسو وجهه نظرات المكر والدهاء. ربما هكذا كان يبدو وجهه

ايضاً يوم كان يدبر خططه مع كروفورد للمزاح.

«وماذا نفعل في نهاية الصيف؟» سألته «نعلن فسخ الخطوبة؟».

«لم اصل في تفكيري الى هذا البعد. سأتفق معك الآن، اذا سمحت لي باعلان خطوبتنا اليوم، اتركك تعلنين فسخها قبل رحيلك من هنا. اليس هذا الاتفاق متكافئ». انه يمنح لمرتا الوقت الذي تريده».

اذن. هي خطوبة صورية لانهاء الاشاعات. فقط هو وهي يعرفان الحقيقة. الخطوبة واسبابها الموجبة تسمح لها البقاء في دانكريغان، ترعى ديرميد الى ان تحقق مرتا رغباتها...

قالت ساندي:

«اوافقك. ستكون الخطوبة مفاجأة لمرتا. لا استطيع الانتظار لأرى تأثير النبأ على وجهها حين نخبرها».

«وايضاً ستكون مفاجأة لآخرين غيرها. انني مسرور بموافقتك. نحن الآن حلفاء».

قال ليماند ذلك ووجهه مشرق بالبشر.

٧ - أعرف من أحب

وصلت ساندي وليماند الى المستشفى.

«اود ان اكلم مرتا على انفراد بشأن مستقبل ديرميد. احتاج لربع ساعة فقط. خذي ديرميد الى الحديقة العامة. سنخبرها بخطوبتنا عند عودتك مع ديرميد».

وقبل ان تجادل، اسرع ليماند يقفز السلالم لوحده. بدأ ديرميد يبكي ويصرخ:

«اريد عمي ليماند. اريد ان ارى الماما».

لكنه سرعان ما نسي بكاءه وعاد يضحك حين وضعته على الارجوحة وبدأت تدفعه قليلاً وهي تلاعبه.

المطر قد غسل الاشجار والازهار فبدت اكثر لمعاناً. الطقس جيد اليوم مما يساعد في مناسبة كهذه: اعلان الخطوبة. كانت ساندي تفكر كعادتها، لكنها ابعدت فرحتها جانباً لانها تذكرت ان الخطوبة مزيفة، بل مزحة رتبها احد التوأمين من آل كالدويل. الهدف من تدبيرها ان تربك وتعطل الاشاعات المحلية حول علاقتها بليماند.

مدت يدها الى جيبها. وجدت رسالتها الى ديريك ميلون ما تزال مكانها لقد نسيت ان تضعها بالبريد. ماذا سيعتقد ديريك بمغامرتها الجديدة هذه لن يفهم ولو شرحت له القصة مليون سنة: خطوبتها الى ليماند الصورية. ولكن لماذا تشرح له التفاصيل، افضل ان لا تخبره بها ابداً. عندما ستراه سيكون الصيف قد انتهى وانتهت معه خطوبتها الى فارس دانكريغان.

وبعد الارجوحة، انتقل ديرميد الى الزلاقة. كان يتزلق عليها مع صغار

آخرين من اعلى الى اسفل وهو يصرخ فرحاً. وقد وجدت عناء كبيراً لاقناعه بأن الوقت قد حان ليذهب ويرى والدته في المستشفى.

كانت مرتا وحدها في الغرفة. وجهها الشاحب الجميل تبدو عليه آثار الدموع.

«اهلاً» بدت مرتا خائرة القوى بعد ان ضمّت ديرميد اليها.

«اين ليماند؟» سألتها ساندي وهي تأمل ان لا تكون دموعها التي ذرفتها، عائقاً يمنع ليماند من الحديث معها.

«ذهب يفتش عن هيلين حيث انها ما زالت تعمل هنا. ساندي، ليماند يريد ان يبقى ديرميد معك في دانكريغان لحين شفائي وكذلك ديرميد يريدك معه. انا لا ارى كيف سيكون ذلك ممكناً بعدما ذكرته هيلين عنك وعنه... لقد تفوهت بأشياء مخجلة».

سألت ساندي:

«ماذا قالت؟».

«تقول انكما تعيشان سوية... كانت هنا في الصباح تلومني. تقول انها غلطتي. كان علي ان لا ادعوك للحضور. وتعلق تعليقات قذرة عنك. انزعجت كثيراً... اخبرت ليماند ما قالته عنك ولو لم اخبره لانفجرت من الغيظ. ابيض وجهه وشعرت كأنه في طريقه للقيام بجريمة. خرج مسرعاً. قال انه سيفتش عن هيلين ويضع لهذه القصة نهاية».

«هل تحدثتما في مستقبل ديرميد» سألتها ساندي بدون ان تكترث لما قالته.

«اوه. كلا. لكنني سأفهم الآن اذا رفضت البقاء مع ديرميد في دانكريغان، ولكن من سيعتني به ان رحلت؟».

«لن اذهب. لا ضرورة لذلك. اتفقنا انا وليماند على اعلان خطوبتنا وهذا سيقطع دابر الاشاعات».

بدا وجه مرتا مضحكاً. عيناها تجمدتا من المفاجأة. فمها انفرج قليلاً وبرزت عيناها الى الامام. اسفت ساندي لأن ليماند لم يكن في الغرفة ليشاهد مرتا على هذا الحال من التعجب والدهشة.

«اليس بارداً. لم يذكر لي ولا كلمة عن الخطوبة ولا لمح لي بها».

«اردنا ان تخبرك النبأ سوية. رغب في ان يكلمك على انفراد بشأن

مستقبل ديرميد اولاً».

«انه احسن خبر سمعته منذ زمن بعيد». اختفت دموع مرتا وحل محلها بسمة عريضة. «هل اخبرت والديك؟ اعتقد ان عمتي ستسر للخبر. دائماً كانت تفاخر بتحصيلك العلمي ولكنها، يوم كنت بضيافتكم اسرت الي بامنيتها ان تراك متزوجة يوماً ما. هل حددتما موعد الزفاف؟».

«لا. لا. قررنا فقط الخطوبة الآن». شعرت ساندي كأنها وسط تيار يجذبها ولا تستطيع الرجوع. مرتا لا تفكر الا بحفلة الزفاف؟ مرتا تعتقد ان الزواج اهم خطوة في حياة الانسان.

«وهكذا، الخطوبة تحل المشكلة. يمكنك البقاء بالرغم مما تقوله هيلين عنك. انها تغار مني، والآن تغار منك لأننا نقاسم ليماند منزله... لا اعتقد انكما انتقيتما الخواتم بعد؟».

«لا ليس بعد» وقالت بنفسها: لن نفعل. هل حسب ليماند حساب الخطوات التي تتبع عادة اعلان الخطوبة.

«اتمنى لكما السعادة». قالت مرتا ذلك وامتلأت مآقيها بدموع الفرح هذه المرة. انها لحظات عاطفية ومرتا حساسة وعاطفية للغاية.

«انت لست غاضبة لأنه خطيبي انا وليس انت؟».

«كنت لفترة سابقة اعتقد ان ليماند هو الرجل المناسب ليصبح والد ديرميد ولكنني تحققت ان ذلك لا ينفع. انا وهو لا يجمعنا شيء. لا احاديثنا متشابهة ولا يمكننا حتى ان نكون صديقين. من الضروري ان يكون الزوج صديقاً وحبيباً في الوقت نفسه. تعلمت هذا الدرس من زواجي الأول، يوم كنت زوجة كروفورد».

«ظننت انك كنت سعيدة معه!».

«كنت احبه يوم كنت اعيش معه. الحياة بصحبته مثيرة ومقلقة. هي مغامرة طويلة. كان برغبتي، طالما انا جميلة ونشيطة ومستعدة ان اجاريه. وكما لا يخفاك لا يمكنني ان اكون دائماً على هذا الحال. لما كنت احس المرض او التعب كان لا يهتم لامري. كان يذهب يفتش عن من تسليه، خارج المنزل، بدلاً من البقاء بجواري ليخفف عني ويسليني. لم يحبني بالطريقة التي كنت ارغب ان يحبني... كنت اتأمل ان اجد يوماً ما شخصاً يحبني كما اريد».

«بيل لندسي؟».

«نعم. كيف عرفت؟».

«ليماند اخبرني».

«كيف عرف؟»

«انه يجيد الحساب». قالت وهي تضحك.

كان ليماند قد وصل الى الغرفة.

«تهاني القلبية يا شقيق زوجي. لا يمكن ان تختار فتاة افضل من ساندي».

«لقد اخبرتها؟» نظر الى ساندي والشرر يتطاير من عينيه.

«كان لا بد لي. كانت تمر بحالة عصبية لأنك اخبرتها ان ديرميد يبقى في دانكريغان فقط اذا رضيت انا البقاء ايضاً معه. وكانت تعتقد انني لن ابقى بعدما اشيع عني وعنك».

«انا مسرور لأنك وجدت ان حل المشكلة كان ممتازاً. اريدك ان تعرفي ايضاً، يا مرتا، انني قررت ان اتكفل مصاريف تعليم ديرميد عنك. هذا اقل ما استطيع تقديمه لابن اخي كروفورد. انا واثق ان والدي، لو كان حياً، كان سيفعل الشيء نفسه. اهلا به يعيش معي في دانكريغان الى ان تجدي لك منزلاً مستقراً».

وجه مرتا كان الآن جامداً من الفرحة وليس من الدهشة.

«اوه، ليماند. كيف اشكرك؟».

«يمكنك ان تخبري بيل بهذا الترتيب في اقرب فرصة». قال ببرودته المعتادة.

«كيف حزرت بعلاقتي مع بيل. حاولنا جهدنا ان نبقيها طي الكتمان وسراً لنا».

«ليلة سهرت في الفندق معه ومع آخرين، لاحظت نظراتك اليه. بعد ذلك تحدثت مع هيلين وعرفت منها ما يريده بيل مني بشأن الصغير. بل اخبرها انه سيتزوج منك ليطمئن بالها. كانت هيلين تشك بأننا انا وانت نعيش قصة غرام. هي لا تثق بي كثيراً ودائماً لديها اسباب وجيهة لذلك».

«كم هي سخيفة. هل اخبرتها بخطوبتك لساندي؟».

«نعم الآن. وقبل ان يحل الظلام سيكون الخبر قد انتشر. حان وقت

لانصراف».
في طريق العودة للمنزل وضعت ساندي رسالتها بالبريد. كانت تجهل عنوان ديريك في جزر اليونان لذلك ارسلتها الى عنوانه في انكلترا. حين وصلا المنزل كان جوني في المطبخ يتناول الشاي.

«كم انتما بارعان في الكتمان؟».

«اعتقد ان الانباء وصلت الى كريغان». قال ليماند ببرودة.

«هيلين جلبت الاخبار» كان جوني يسخر «كانت تنتظره على الشاطىء لتخبره النبأ فور وصوله. كنت اساعده في المركب وقت السباق. سمعت كل شيء. شعرت كأنني احمق صغير وانا اعترف له ان لا علم لي بالأمر».

«انا وساندي لم نكن نعرف... حتى هذا الصباح». قال ليماند ذلك وهو يضحك. «وهذا كل ما عندك يا جوني؟».

«لا. تهانينا القلبية. كم كان رون صائباً وهو يمزح البارحة. لقد تنبأ لساندي بذلك. كذلك والدتي سوف تقول انها رأت في فنجانها رجلاً اسمر».

«هذا صحيح. قالت لي انها ترى شاباً وسيماً اسود الشعر في حياتي».

ضحكت ساندي ثم تذكرت ما قالته نان عن هيلين وقد حذرتها من انها متسبب لها المشاكل... شعرت بقشعريرة تسري في بدنها.

سألها جوني:

«وهل ما زلت راغبة في مشاركتنا رحلتنا البحرية غداً؟».

«اوه. لكن...» واشارت ساندي الى ليماند تعني بها ان ذلك اصبح غير وارد.

«رون سيفهم ولن يقف عائقاً بين حبيبين، واظن انه سيسعده ان يرافقنا ليماند». ثم نظر الى ليماند واكمل: «تحتاج لاجازة من العمل، يوماً واحداً، لماذا لا يكون ذلك احتفالاً بالمناسبة السعيدة؟» قال جوني.

«ربما» قال ليماند ونظر الى ساندي بحنان. احست ان قلبها قد قفز من مكانه من شدة الفرح.

ابحروا في المركب الأزرق، قبل ظهر يوم الأحد. كان ليماند يساعد في فك الشراع وتحكيم وضعه. النسيم عليل. تركوا المصب وخرجوا الى

عرض البحر. عملية الابحار جعلت ساندي تنسى جميع مشاكلها. كان يجلس ديرميد في حضنها باستكانة، وهي تتمتع بالتهاني التي انصبت عليها من مرافقيها وتعليقاتهم الخفيفة الظل. كان معهم في النزهة البحرية ستيلا غرانت والساقية الشقراء واسمها جين هاردويك وهي ابنة صاحب الفندق والتي عادت لتمضية عطلة الصيف وهي جامعية ايضاً.

وصلوا الى خليج صغير، ربطوا المركب ونزلوا ليسبحوا. طريق العودة كان اقل حيوية ونشاطاً. كانوا يبحرون بعكس الريح مما اضطرهم للاستعانة بالمحرك. حين وصلوا المرفأ ركبت هي وليماند ومعهما ديرميد في زورق صغير وتولى ليماند مهمة التجذيف. وقد احست ساندي ان هذا اليوم من اجمل ايام حياتها اطلاقاً. لقد شاركها ليماند فيه وكان هادئاً وعاملها بلطف ولباقة لم تعهدهما منه من قبل. كل من حولها لاحظ اهتمامه بها ولباقته في معاملتها.

في المنزل، عاد ليماند الى سابق عهده، قبل اعلان الخطوبة. لم تعد تراه اكثر من السابق. وتراه وقت الطعام ليس الا. الاثنين حضرت السيدة برودي لتدير اعمال المنزل. بدأت بالتهاني والتعليقات واتبعتها بوابل من الاسئلة.

ومرت ايام الاسبوع متشابهة. بعد الظهر وقت قيلولة الصغير كانت تدرس الصور من جديد علها تجدد موقع الحفريات. ذهبت مرتين لزيارة مرتا في المستشفى. كانت تذهب مع جوني على دراجته. كان ليماند مشغولاً جداً ولم تسنح له فرصة للذهاب معها. منذ الأحد الماضي لم تره الا لماماً. وتخاف ان يلاحظ جوني ذلك ويستغرب الوضع غير الطبيعي بين خطيبين. هذا الاسبوع كان راكداً وكئيباً اذا ما قورن بالاسبوع الذي سبقه. الجمعة اخذت بعض الثياب الى مرتا في المستشفى لأنها تستعد للخروج يوم السبت. حين وصلت ساندي الى غرفتها وجدتها في حالة عصبية كأنها تكبت احاسيسها. امطرتها مرتا بوابل من الاسئلة عن الحالة في دانكريغان.

«كل شيء على ما يرام». اكدت لها ساندي «المكتبة اصبحت مرتبة ونظيفة. انا مسرورة لما قمت به من عملية التنظيف. لو يستطيع ليماند ان يوفر لي بعض الدهان لكنت طليت الجدران واعدتها قاعة استقبال من

القرن الثامن عشر».

«المنزل يحتاج لأكثر من ضربة دهان. يحتاج الى ترميم وتغيير للأدوات الصحية وأعمال نجارة . . . هل تشعرين الآن انك سعيدة وهل زايلك الاحساس بالذنب لأنك فرضت نفسك على ليماند يوم حضرت».

«اكيد (كانت تكذب) ولكن لماذا تسألين؟».

«كنت اسأل اذا كنت ستبقين فترة اطول في دانكريغان. حضرت اليوم هيلين لزيارتي. سترحل عن كيركتون بعد ان سنحت لها الفرصة لتعمل هنا شريكة للدكتور باركر. تقول هناك فرصة اخرى لها في غلاسكو. ستعمل في ابحاث عن السرطان. ستسافر مع والدها، كانتا مضطربتين، وانت تعرفين السبب؟».

«كلا، لا اعرف السبب. هل تعرفينه انت؟».

«السبب هو خطوبتك الى ليماند. كانت هيلين تمني النفس بأن تتزوج احد التوأمين وكانت على وشك الزواج من كروفورد ولكنه تشاجر مع والده وطرده من المنزل وتزوج بي. هيلين تظن انها اذا عملت في كيركتون قرب عمل ليماند ربما تتحقق امنيتها في يوم من الأيام».

مسكينة هيلين، ولكن لماذا مرتا تعطف على حالها؟ صحيح انها سببت لها المشاكل وتناولتها بالاشاعات، ولمحت الى العلاقة بينها وبين ليماند بشكل قذر، ولكن ها قد ردت الحراب الى نحرها وعادت عليها بأسوأ النتائج، سترحل من جديد بدون ان تحظى بأحد التوأمين. ستخبر ليماند بالأمر. ماذا ستكون ردة الفعل لديه؟ هل نسي ان يحسب حسابها؟ هل يهتم لأمرها؟ وكيف لها ان تعرف؟ انه نسيج وحده ولا يمكن لأحد ان يتنبأ بتصرفاته.

عادت الى دانكريغان مع جوني على دراجته. انزلها امام المنزل وأكمل طريقه من جديد الى كريغان. الشمس وقت الغروب ترخي ظلالاً خفيفة فوق التلة خلف المنزل. حدقت ساندي ورأت بكل وضوح ظلاً مستديراً. لا بد انه يعكس خندقاً كان يلف الحصن القديم.

ركضت الى مكتب ليماند تخبره انها ستصعد التلة خلف المنزل. طلبت اليه ان ينتبه الى صوت ديرميد حين يستفيق. لن تتأخر. كان في غرفة جانبية، اثاثها فخم قديم من طراز وندسور. لم ينظر اليها حين سألته بل

اكتفى بأن همهم.

اخذت همهمته على انها موافقة، كان ليماند مشغولاً جداً في تحضير الميزانية وبقية اعمال المزرعة كعادته في نهاية كل شهر.

بدأت الشمس تشحب وتستعد للمغيب. صعدت التلة وتعرفت الى الحفرة. كانت مليئة بالعليق. خلف الحفرة ترتفع الأرض بانحدار بسيط. التلة كلها تشكل الحصن. مشت حول التلة مع الحفرة. وجدت نفسها كما انتظرت، في الضفة الثانية من التلة، تشرف على مصب النهر. وصلت الى حاجز من الاسلاك الشائكة والتي تشير الى حدود املاك دانكريغان. الجهة الثانية قد مهدت واعدت للبناء. اختفت الحفرة كلياً هناك. نزلت التلة فوجدت حفريات شبكة تصريف المياه والمجارير.

قاعدة اساسية في عمليات التنقيب تقوم على دراسة حفريات المجارير قبل البدء في البناء. هنا يمكن للخبير في التنقيب ان يتحقق اذا ما ظهر، اي شيء له قيمة اثرية الى الوجود. هذه الاراضي قد اشتراها البنّاء كارسون. الحفريات موجودة. عليها فقط التحقق لعلها تجد بقايا خزف او اثار اخرى من هذا القبيل، لتجزم ان حصناً قديماً كان هناك. ستعود غداً للمزيد من التفحص.

بدأت تمشي بمحاذاة الحاجز. فجأة انتهى الحاجز ووجدت نفسها في الطريق التي مشتها مع ليماند يوم عادت برفقته من كريغان. تحتها حصن دانكريغان كأنه شبح وسط الظلام الذي بدأ يحل بالمنطقة. تنبهت ان احداً يتحرك باتجاهها في الممر. انه ليماند. . .

«جئت ابحث عنك. لقد اتصلت والدتك واخبرتها انك ستتصلين بها حين عودتك».

كان يقف امامها وجهاً لوجه.

«هل حدث شيء عندنا في البيت؟ هل اخبرتك والدتي اي شيء؟».

«لا. تبدين قلقة. هل تنتظرين حصول اي شيء في منزلكم؟».

«ربما وصلتها رسالة من مرتا تخبرها عن الخطوبة. كان علي ان اخبرها بنفسي قبلها. . . ولكني، اظن ان تعقيدات لم نلحظها من قبل تنتظرنا».

«لماذا تقولين تعقيدات بالجملة؟ اذكريها!».

«ويلين سترحل. سوف لا تبقى لتعمل في كيركتون».

«وماذا يهم؟ انها حرة التصرف وتختار ما يروقها». ظهر لساندي انه لا يهتم بها.

«وانها سترحل لأنها جرحت مرة ثانية من احد ابناء كالدويل. خطوبتك خيطت كيانها».

لم يجبها فوراً. حين اجابها كان يبدو مسروراً وتمنت لو ترى وجهه. كانا يمشيان جنباً الى جنب والعتمة تغطي المكان.

«هل انت حزينة لاجلها. لا تهتمي بها. هل يزعجك ان تخبري والديك بالخطوبة؟».

«لا. الا اذا كان ذلك لا يضايقك؟».

«لن اتضايق. اخبريهم بالأمر». ثم اكمل «خطوبتنا لها حسنات وفوائد عديدة».

اصبح هادئاً زيادة عن اللزوم. خافت. ربما سينقض عليها ليستفيد من فوائد الخطوبة. ركضت بسرعة امامه ولكن يده امسكت بها. وادارها بسهولة لتواجهه وهو ما زال ممسكاً بها ويداه على خصرها، مستعداً ان يطبق عليها ان حاولت ان تتحرك.

«لا تركضي بسرعة. على مهلك قليلاً. القمر ليس بدراً الليلة ولكن هناك نجمات تكفي». وضعت يدها على صدره لتبعده وهي تدافع عن نفسها. احست سرعة نبضات قلبه تحت يدها. كان ما يزال بثياب العمل التي يلبسها في الحقول. قالت ببرودة تصنعتها:

«اعلان خطوبتنا لا يعطيك الحق في مغازلتي».

«اعتقد انها كذلك. لقد قيل لي ان العناق والغزل من متممات الخطوبة بل اهم ما فيها. في نيتي ان اتمسك بحقوقي وامتيازاتي وانتفع بها كاملة».

«لا تنتظر مني ان احب ذلك».

حين عانقها خافت ان يشعر بحماسها له، او انها رضخت لرغباته بسهولة. استجمعت قواها وافلتت منه وركضت كأن وحشاً بشرياً يلاحقها. كان شعورها الحقيقي سعادة كبيرة تلت العناق والركض. تمنت لو يلحق بها ويجعلها تدفع الثمن مزيداً من العناق حتى يكتفي وتكتفي.

وصلت الى المطبخ ومنه الى القاعة الاساسية. كان قد لحق بها. امسك بها قرب باب القاعة وجعل الحائط خلفها. نظراته صاروخية. عانقها بقوة ورمى بكل ثقله على صدرها. لم تستطع الحراك او الدفاع لأن المد المثير الذي ارتفع في داخلها، غمرها.

«انت تحبين العناق». قال بحنان وقد انقطع نفسه «وقبل ان ينتهي الليل سأجعلك تعترفين بأنك تحبينه».

ابعدها قليلاً عن الحائط واحاطها بذراعيه ليضمها اليه اكثر. هذه المرة كان عناقه لطيفاً. كان يحرك عواطفها حسب رغبته، يأخذ منها مقابل ما يعطيها. رفعت يدها لتلمس وجهه وتلعب بشعره الأسود. لا فرق عندها بعد الآن ماذا سيحصل. مرة ثانية شعرت انها ترغب بكل ما يرغب فيه.

لأول مرة منذ حضرت ساندي الى دانكريغان اطالت النوم صباحاً.

استفاقت على يد صغيرة تهزها. فتحت عينيها لتجد ديرميد قربها مصبوغ الوجه بحمرة الشفاه كأنه مهرج.

«ساندي. قومي. انني جائع واريد الفطور».

«ماذا فعلت بوجهك؟».

«استعملت ادوات الزينة خاصة الماما. هي تضع الحمرة على فمها. هل شكلي جميل مثلها؟».

اعطاها اصبع الحمرة وقد تهشم واصبح لا ينفع لشيء.

«ايها العفريت الصغير!» احتارت ساندي هل تضحك ام تصرخ في وجهه وتؤنبه.

«علي ان انظفك قبل ان يراك عمك ليماند والا سيكون لك معه شأن آخر».

مشى ديرميد معها الى الحمام بدون معارضة خوفاً من توبيخ عمه له. اطلت الى غرفة مزنا فوجدت جميع ادوات الزينة والملابس مبعثرة هنا وهناك. نظرت اليه فاذا هو يستعطفها وهو يرتجف:

«لا تقولي لعمي ليماند».

«طيب. لكنك شيطان يا ديرميد مثل ابيك وعمك حين كانا في عمرك. . . ».

كان المطبخ خالياً، لا جوني ولا ليماند بالداخل والسيدة برودي لا

تحضر يوم السبت. الصحون الوسخة ... في المغسلة. وضعت ابريق الشاي حضر جوني. جلب فنجان شاي وصب لنفسه وبدأ يشرب وقال:

«تأخرت في النوم. متأسف لانني قطعت عليكما عناقكما، انت وليماند، الليلة الماضية». كانت واثقة بأنه لن يترك هذه الفرصة تمر بدون ان يعلق عليها.

«لا تهتم. كنا فقط نقول مساء الخير».

«اوه. لا تلفقي يا ساندي. هل تظنين انني لا افرق بين عناق مساء الخير والعناق الحار... لقد نلت اللوم والتقريع العنيف من ليماند لانني عدت باكراً من القرية. وهذا الصباح، لم يكن ودوداً معي».

بالتأكيد لأن رجوع جوني باكراً الليلة الماضية ضيع على ليماند فرصة. كان يرغب في مغازلة ساندي لحين تعترف له بأنها تحب العناق مثله. حضور جوني جعل ليماند يفلت ساندي التي ركضت بدورها الى غرفتها في الطابق العلوي.

كانت ساندي تراقب جوني وهو يرمقها بنظرة العارف في بواطن الأمور بدأت تتلهى وتخبره بما قام به ديرميد من شيطنة. فيما هما يتكلمان رن جرس التلفون. طلبت من جوني ان ينتبه الى الصغير كي تتكلم على التلفون:

«ساندي. انا امك. لماذا لم تتصلي بي مساء؟».

«متأسفة يا ماما. تأخرت في استلام رسالتك الهاتفية لي واعتقدت انك ذهبت للنوم. هل هناك اي مشكلة؟ انت تتكلمين في التلفون من مسافة بعيدة وفي النهار!».

«لا. لكن اخباري لك ضرورية. زارنا صديقك ديريك سلون...».

«لكنه موجود الآن في جزر اليونان».

«لا. لقد عاد. انتهت المهمة قبل موعدها. وصل هذا الاسبوع الى انكلترا. وجد رسالتك بانتظاره. كان متحمساً جداً لما اكتشفت. سيمر عليك قبل ان يزور صديقه الذي يعمل في متحف غلاسكو - قسم التنقيب. كان عليّ ان اعلمك. سيصل بعد ظهر اليوم. سيحضر بالسيارة. هل يستطيع ان يتصل بك؟».

«بالطبع. امي هل استلمت رسالة من مرتا مؤخراً؟».

«لا. لا منك ولا منها، لماذا. ماذا يحصل عندكم؟».

«كنت افكر ان اكتب لك او اتصل تلفونياً لاخبرك انني اعلنت خطوبتي».

«صحيح. يا حبيبتي. ما احلى اخبارك. هل خطيبك شخص نعرفه؟».

«لا. ولكنك سمعت به. انه ليماند كالدويل. سلف مرتا... في البداية كنت لا احبه!».

«هذا يحصل دائماً. اظنك حكيمة لانك ترغبين في فترة خطوبة. لا تتعجلي الزواج مثل مرتا. الخطوبة تعطيك فرصاً افضل للتعارف وكذلك للتراجع قبل الارتباط الجدي في حال وجدتما ان الزواج لن ينفعكما. علي ان اتركك الآن. والدك خلفي يذكرني بتكاليف هذه المخابرة. يرسل لك حبه. سأكتب لأقول الى ليماند اننا نحب ان نراكما في زيارتنا متى تسمح لكما الظروف».

اغلقت ساندي سماعة التلفون. شعرت براحة بعد ان اخبرت والدتها بالخطوبة. كان جوني ما يزال يلعب مع ديرميد ويضاحكه.

«اين ليماند؟».

«يطعم العجول».

«انتظر مع ديرميد دقائق قليلة ارجوك. علي ان اكلم ليماند بشيء هام».

ركضت الى الزريبة. الهواء خفيف وكذلك الامطار. كان ليماند يحمل سطلين فارغين. رآها راكضة نحوه. توقف مكانه ينتظرها.

«ما الخبر؟» سألها. كان جافاً لا وجود لابتسامة على وجهه. التعب ظاهر على محياه كأنه لم ينم ابداً الليلة الماضية.

«مزيد من التعقيدات» قالت له «اتصلت والدتي. لدينا زائر بعد الظهر».

«هل ستحضر والدتك الى هنا؟».

«لا. انه صديق لي».

اجابها ساخراً:

«هل هو صديقك الذي تشاركينه في ميوله، بقايا الخزف، الآثار، التوابيت».

«انه هو». اجابته وهي تتعجب كيف حزر. كان ليماند يضحك بصوت مرتفع.

«لماذا تضحك. انا مرتبكة ...» قالت وهي تكاد تنفجر من الغيظ.

«ما الذي يضايقك؟ هل تجدين خطوبتنا مربكة الآن؟».

«نعم. لا اظن ديريك سيفهم اسباب الخطبة المزيفة. لا أعرف كيف سأشرحها له».

«ارجو ان لا تكوني راغبة في قول الحقيقة له؟».

«لا استطيع ان اخبره الحقيقة الا اذا وافقت انت. ربما سيشعر بجرح مثل جرح هيلين».

«هل اخبرت والدتك بالخطوبة؟».

«نعم».

«هل كانت متفهمة للوضع؟».

«نعم. قالت اعلان الخطوبة اولاً عمل حكيم يساعدنا في ان نتعرف اكثر على بعض، ثم نستطيع فسخها حين نقرر اننا لا نصلح للزواج».

«اذن. قولي لديريك الشيء نفسه. واذا لم يفهم يكون ذلك من سوء طالعه. اذهبي الآن الى المنزل من اجل رعاية ديرميد».

«ولكنني...».

«قلت لك ما يتوجب عليك عمله. الم تحضري الى هنا لتأخذي نصيحتي؟ هل كنت تعتقدين انني سأفسخ الخطوبة بسهولة فترة زيارة ديريك هنا. انا لا استطيع ذلك. آسف. اذا فسخت الخطبة بهذه السرعة تزيد الاشاعات اكثر وبالتالي لن تستطيعي البقاء. آسف لأن الخطوبة بنظرك ورطة مربكة، لكننا وافقنا عليها سوية، من اجل سمعتك وفضائلك، كي لا تزيد من تلطيخ سمعتي وتزيدها سواداً وكي نعطي مرتا الوقت اللازم لتحصل على رغباتها... عن اذنك. انني مشغول. لدي حيوانات اريد اطعامها».

تكلم بخشونة وكبرياء مما جعل ساندي تظهر امامه كأنها عبدة له، عليها الاخلاص والولاء. نظرته اليها كشيء يثير قرفه واشمئزازه.

«نعم. نعم يا سيدي» اجابته وهي تضحك. قدمت له تحية ملكية، ركعت له ساخرة لم تشعر ساندي ان عواطفها قد جرحت، لكنها احست

بالدموع تجول في عينيها. فتشت عن السبب، ولكنها استبعدته على الفور. لا يمكنها ان تعترف ان خشونته قد جرحت احساسها، لانها في قرارة نفسها قد وقعت في حبه.

صباحاً رن جرس التلفون وكانت مرتا على الخط كان صوتها ضاحكاً.

«احزري يا ساندي».

«ماذا؟».

«تزوجنا الآن، برخصة خاصة، انا وبيل».

«لماذا لم تخبريني البارحة بعزمك؟ كنت ولا شك تعرفين».

«اردناه زواجاً سرياً. ارجوك اخبري ليماند بالنيابة عني!».

«طبعاً. سأقول له. الن تحضري الى هنا بعد الظهر كما اتفقنا؟».

«لا. سنذهب شهر عسل صغير الى بلد يعرفها بيل. عندما نعود سنأخذ ديرميد ليعيش معنا في بروكفيلد».

«لم اسمع ان احداً تزوج وهو بالجص وعلى عكازين؟».

«ولا انا كذلك». قالت مرتا وهي تضحك. «قررنا ان نبقى سوية، بما انه سيعالجني في اي حال».

وقت الغداء، اعلنت ساندي الانباء الى ليماند وجوني. لم يعلق ليماند. سر جوني وقال:

«خطوبة هنا وزواج هناك. علي ان ارجع فوراً الى الجامعة قبل ان تصيبني العدوى. كما تعرف يا ليماند، لقد تغير هذا المنزل منذ وضعت مرتا قدمها فيه».

«هذا صحيح. ولكن لا تهتم للأمر. كل شيء سيعود لسابق عهده بعد اسبوع او اكثر». اجاب ليماند.

كان ليماند يرمي من كلامه انه لا لزوم لها في دانكريغان بعد ان تأخذ مرتا ابنها.

فترة قيلولة ديرميد امضتها ساندي في المكتبة تفتش من جديد عن البقايا الخزفية التي عثر عليها كافن. عليها ان لا تتعجب من موقف ليماند الجديد. لا شيء غريب عن طبيعته. دائماً بارد ولا يكترث. غريب الاطوار احياناً. ها هو يتصرف الآن كأنه ليس صديقاً لها او حتى حليفاً.

ولكن، الليلة الماضية، لو لم يحضر جوني. . . ثم ابعدت عنها هذه الفكرة بسرعة، ما الذي كان سيحصل؟ حضور جوني كان لصالحها. ثم يوم حضرت هيلين وقطعت عليها عناقها. . . لو لم تحضر. . . ولو لم يحضر جوني. . . ربما كان ليماند اضافها الى لائحة الازهار التي قطفها ثم رماها. انها تعرف، انها لن تقاوم سحره.

امتلأت عيناها بالدموع من جديد. امسكت بكتاب لتنظف الغبار عنه. كان كبيراً وسميكاً. فتحت الغطاء واصابتها رعشة دهشة للفور. انها كانت علبة متخفية بشكل كتاب. بداخل العلبة بقايا ملفوفة بعناية فائقة في ورق ناعم.

نسيت دموعها. فتحت العلبة بعناية. ظهر لها دبوس الزينة المعدني (ربما كان مصنوعاً من الذهب). الدبوس يشبك القماش حول الرقبة او على الكتف. ملصق بالدبوس بطاقة كتب عليها كافن بخطه: وجد في حفرة في التلة مما يؤكد نظرية تشايلد في بداية هذا القرن، ان دانكريغان هي موقع حصن قديم في العصور المظلمة. ثم وجدت العجينة الفخارية وعليها بطاقة تقول: وجدت في حفرة في التلة، ربما بقايا عجينة فخارية للصب في قوالب معدنية.

اعادت ساندي البقايا في عناية. ان ديريك يستطيع مساعدتها لتحديد قيمتها. ستأخذ رأيه عند وصوله.

وقع نظر ساندي على صورة كافن وفيليدا فوق المكتب. امسكت بها لتعيد النظر. ما اعجب هذا الرجل. انه مزيج من الكبرياء والعجرفة ولكن في داخله احساس عميق. هو عالم وباحث وقد ربح الميداليات لبطولات وشجاعة في المعارك ليس ليقتل بل لينقذ ارواح الرجال الذين يعملون تحت امرته.

نظرت الى فيليدا وجهها المشوش فيه مكر عجيب. قيل ان المرأة مستهترة ومتيقظة. قيل ايضاً انها متحمسة، ولا تفكر في نفسها. هي الوحيدة التي تبرعت في مرافقة سيتوارت لندسي في رحلة تجريبية في مركبه الجديد وقد غرقت معه. مما لا شك فيه ان كافن قد احبها. ولكن هل كانت هي ايضاً تحبه. هل احبت سيتوارت لندسي؟ لا احد يعرف. فقط فيليدا وحدها تعرف الحقيقة وقد ماتت فيليدا وماتت الحقيقة معها.

انتقل تفكيرها الى بيل وهيلين، ولدي سيتوارت، ثم الى ليماند الولد الحي الباقي لكافن. قارنت بينهما. الشعر الأسود وعينا كافن التي تشبه الصاروخ وتمتمت لنفسها، لو كنت انا مكان فيليدا لكنت بالطبع اعرف من احب.

٨ - رفيقي الى الأبد... زهرة

لم يصل ديريك بعد الظهر كما انتظرت ساندي. حضر في اليوم التالي صباحاً بينما كانت ساندي تغادر المنزل مع ديرميد الى الشاطىء لتستفيد من تحسن الطقس.

نزل ديريك من السيارة السوداء الصغيرة التي كان يقودها بنفسه. رأى ساندي مع ديرميد. ضحك لها وقال:

«مرحباً. اخبريني ما قصة الحصن القديم الذي يعود تاريخه الى العصور المظلمة؟».

«استلمت رسالتي اذن!».

«وصلتني في اليوم نفسه الذي وصلت فيه الى البيت عائداً من الجزر اليونانية».

كان ديريك قد اكتسب سمرة محببة، من البحر الابيض المتوسط، ظهرت بوضوح على وجهه الطويل النحيل واعطت لشعره الاشقر لوناً برونزياً. لباسه، كالعادة، قليل الترتيب. عصبي المزاج، عيناه زرقاوان، سريع الملاحظة، يلبس على عينيه نظارات طبية.

رؤية ديريك لم تجعل نبضها يسرع ولا سمعت طنيناً في اذنيها. اهتمامه بالحصن كان يفوق اهتمامه لرؤيتها. بدأ عقلها يهضم هذه الحقيقة وهي تجيب عن اسئلته حول الحصن. اخذته الى المكتبة في المنزل حيث عرضت عليه البقايا الاثرية التي كان قد وجدها كائن في التلة.

«الصور الفوتوغرافية تجزم بوجود الخندق». قالت ساندي «ولكنه مليء بالعليق».

«اريد رؤية الصور. انني بطريقي لرؤية نويل ماك - كويش انت تعرفين ان الشاب عمل في حفريات التنقيب في روكستر وهو يعمل الآن في متحف غلاسكو. سيسر جداً بما اكتشفت».

«علي ان استأذن ليماند في السماح لك بأخذ الآثار معك».

«من هو؟».

«انه المالك الحالي لهذه الأراضي وابن الرجل الذي عثر على الآثار. انه خطيبي».

انتهت من مشكلة اخبار ديريك انباء خطوبتها. انتظرت ردة الفعل عنه. لم يبد اي انزعاج بل اكمل فحص الدبوس الذي بين يديه. ثم قال ببرود:

«لماذا الخطوبة الآن. اعتقدت دائماً ان لا صبر لديك لمؤسسة الزواج وترغبين في اكمال علومك للنهاية».

«الخطوبة خطوة مرحلية تتيح لنا ان نتعرف على بعض ونكتشف اذا كنا حقيقة نرغب في الزواج. يمكننا ان نتراجع متى نرغب ونعلن فسخها».

«اعتقد ذلك. كنت تعرفين ان هناك دراسات تقول بوجود حصن قديم يعود الى القرن السادس في هذه المنطقة».

كان ديريك يقلب القطعة الفخارية ويتفحصها. اهتمامه بها يفوق اهتمامه بأنباء خطوبتها.

«انها عجينة خزفية لصنع ادوات الزينة. يوجد عليها نقوش في داخلها. انها تذكرني ببعض البقايا التي وجدناها في مستوطنات الانكلو - ساكسون. هذه القطعة عليها نقوش».

ان خطوبتها لا تعني له شيئاً. هي بالنسبة اليه صديقة تشاركه ميوله العلمية وبحوثه. لديهما مصالح مشتركة لبحثها مثل: بقايا الخزف والدبابيس الاثرية. انه لا يراها كامرأة وسوف لن يراها كذلك ابداً.

«سأتصل بـ نويل. سأطلب منه الحضور الى هنا. هل هناك نزل تبقى فيه، نوم مع فطور؟».

«طبعاً. في القرية. جوني يعرف اين. علي ان احذرك ان ليماند لن يسمح لأحد بالحفر في القسم من التلة التي تقع ضمن املاكه لأنه زرعها اشجاراً صغيرة».

«هذا سخيف».
«الليلة الماضية تمشيت حول التلة في الموقع الذي اعتقد انه الخندق. انتهيت في موقع للبناء. وجدت حفريات المجارير التي قام بها عمال البناء».
«مجارير. هذا عظيم. هل تعرفين البناء؟».
«اعرف ابنه، هو الذي جلب لي الصور».
«حسناً. متى نستطيع زيارة الموقع؟».
«الآن اذا كان باستطاعتي ان اصطحب معي الصغير».
كريغان هادئة مع مطلع الصباح والشمس مشرقة. بعض المراكب كانت تتأرجح في المصب ولحسن الحظ جوني ورون ما زالا على الشاطىء ولم يبحرا بعد. رحبا بديريك ووجدا له مأوى في نزل صغير ثم ذهب الجميع لرؤية الحفريات المعدة للمجارير في موقع البناء.
بقوا هناك للظهر. كم يمر الوقت سريعا. عادت ساندي مع رون في سيارته ومعها ديرميد الى دانكريغان. التقت سيارة هيلين تغادر المنزل قبل وصولها. كانت هيلين في طريقها باتجاه كيركتون.
لم يكن ليماند في المنزل. اكلت هي وديرميد ثم اخذته لغرفته ليرتاح. نزلت الى المكتبة لتكمل عملية تنظيف الكتب. بعد الظهر اخذت ديرميد معها حيث ساعدت في عملية التفتيش وسط الحفريات المعدة للمجارير.
لم يعثروا على شيء. اتصل ديريك تلفونياً بنويل. اخبره انه سيصل الى دانكريغان في اليوم التالي. مشت ساندي مع ديريك وديرميد الى المنزل. اراد ديريك ان يسأل ليماند السماح له ليطلع نويل على الآثار التي في المكتبة.
كان ليماند ما يزال في الحقل يحاول اصلاح محرك الجرار. تعرف الى ديريك وصحبه الى المكتبة. سألت ساندي:
«هل تسمح لنويل ان يأخذ الآثار معه الى متحف غلاسكو لتقييمها وتوثيقها».
اجاب ليماند بعدم اكتراث:
«لا مانع عندي. المهم ان تبتعدوا في الحفر حيث المزروعات»
«واذا استطعنا ان نبرهن وجود الحصن سيعود الفضل في ذلك لوالدك.

اخبرتني ساندي عن المخطوطات التاريخية التي الفها. ارجو ان تنشر يوماً ما».
«ربما افعل. ارجو ان تذكر فضل ساندي لأنها كانت تنقب هنا».
«بالطبع. ستساعدنا في الحفريات الاسبوع المقبل. قبل كارسون البناء ان يؤخر عماله في البناء لحين ننتهي من عملية التنقيب». قال ديريك جاداً.
«حسناً» قال ليماند وترك الغرفة بدون استئذان وكأن شيئاً لا يعنيه، حتى انه لم ينظر الى ساندي. قال ديريك.
«انا لا افهم!».
«ماذا تعني؟».
«هو وانت».
كادت ساندي ان تخبره ان خطوبتها صورية فقط لتنهي الاشاعات حول علاقتهما. لكنها متأكدة ايضاً من انه لن يفهم الاسباب مهما شرحتها له. توقفت.
«ربما جميع آرائي بصدد مؤسسة الزواج خاطئة. كنت اتخيل الخطيبين في حب ظاهر وحنان ملحوظ». ثم اكمل حديثه كمن لا يعنيه الأمر او كمن ارتبك في بحث موضوع خاص، «كالحب بين شخصين».
«وكيف تعرف اننا لسنا كذلك عندما ننفرد ببعض؟ عواطفنا هي ملكنا وحدنا وليست عرضاً للتسلية، يتفرج علينا الآخرون».
«اعتقد انك على صواب. سأعود الى القرية. لقد دعاني رون الى منزل والديه للطعام».
انزعجت ساندي من حديثها مع ديريك. بقيت كذلك فترة بعض الظهر. بقي ليماند معزولاً عن الجميع وبذلك اعطى ديريك مجالاً لمثل هذا التفكير. تراجع ليماند في علاقته معها. تذكرت اول اسبوعين لها في دانكريغان. كانت لا تراه الا وقت الطعام. كأن لا اسرار بينهما مثل سر الخطوبة.
كانت ساندي تأخذ ديرميد معها كل يوم وتمضي معظم اوقاتها فوق التلة. وصل نويل وقرر ان يبقى في دانكريغان لنهاية الاسبوع. وجدوا في حفريات المجارير بعض الآثار: عظمة مصقولة تشبه مسكة مشط وعليها

زخرفة ونقوش، بقايا خزفية اخرى. . . عثر ديريك على رف من الحجارة المرصوصة. يحتاجون للحفر والتنقيب في نطاق واسع ليتحققوا مما عثر عليه ديريك. قال نويل:

«نحتاج من خمسة الى ستة اسابيع في العمل هنا. سأعود الآن الى المتحف. كارسون يستطيع الانتظار ليكمل البناء متى تفرغ من التنقيب. من المؤسف انك لن تبقى حتى النهاية يا ديريك».

«عليّ ان اعود للجامعة في دولشستر من اجل ابحاثي. انا لا اعرف ماذا ستفعل ساندي».

حتى ولا هي تعرف ماذا ستفعل. . . عادت مرتا من شهر العسل ومرت الى المنزل بطريقها الى بروكفيلد لتأخذ ديرميد معها. كان ليماند خارج المنزل في قرية كيرك كادبرايت في اجتماع مع اعضاء المجلس.

وصلت مرتا وكانت ما تزال تستعمل العكازين. كانت جميلة مشعة، ووجهها مشرق بالسعادة. ومعها بيل بطبعه المرح المعتاد.

«يمكنك ان تأتي لتعيشي معنا في بروكفيلد». قالت لها مرتا «الحين تحديد موعد الزفاف. هل ستذهبين الى هامشير قبل الزواج؟».

«نعم. ارغب في العودة الى هامشير. يمكنني ان اذهب برفقة ديريك. سيترك اليوم بعد الظهر». دهشت مرتا من قرارها ولكنها شرحت لها الاسباب بسرعة، «سأذهب من اجل الحصن».

«انه مثير» قالت مرتا. كانت تظهر على قسمات وجهها امارات الضجر. اكملت «اعلميني قرارك. اخبري ليماند اننا عدنا ونود رؤيته. ما يزال علينا بحث مستقبل ديرميد العلمي معه بالتفصيل».

غادرت مرتا وبيل دانكريغان وبصحبتهما ديرميد. شعرت ساندي ان لا شيء يشغلها هي حرة التصرف وتستطيع الرحيل اذا رغبت. ولكنها ليست حرة تماماً. عليها انتظار عودة ليماند لتخبره برجوع مرتا. الآن اسباب بقائها في دانكريغان زالت وبزوالها تستطيع هي وليماند فسخ الخطوبة.

انها لا ترغب في الرحيل. دراستها في دولشستر لم تعد تهمها. صعدت الى غرفتها وبدأت توضب حوائجها لتكون جاهزة حين يحضر ديريك، كما وعد. قال سيمر عليها قبل عودته، بطريقه الى كيركتون في الجنوب. كانت تجمع حوائجها بشكل مضطرب وتجد صعوبة في ان تبقي عقلها يعمل.

تحاول ان ترمي خلفها كل الافكار المزعجة ومنها اسباب ابتعاد ليماند عنها مؤخراً. كان هذا يجرحها بل يؤلمها كثيراً.

الافكار تتلاحق في ذهنها. تذكرت آراءها العفوية عن الحب والزواج وعن امكانها ان تعرف مع نهاية الصيف اذا كان هناك شخص ترغب الزواج منه والعيش معه. وها قد انتهى الصيف وعرفت انها تحب صديقاً وترغب العيش معه لآخر العمر. لا فرق عندها في الطريقة التي يختارها لتبقى معه، قريبة منه، تتجادل واياه، يوبخها بسخرية، تمشي معه في ضوء القمر، تضحك معه، تحبه.

انتهت من حزم امتعتها، ذهبت الى النافذة ونظرت الى الحصن. الطقس غائم والهواء شديد يصفر ويرسل الغيمات راكضة في السماء. المياه في المصب تدور بفعل الرياح وتجعل رغوة بيضاء تطفو فوقها.

تذكرت ساندي بيتاً في الشعر لتنسون حيث قال: «المياه تمطر على جدران الحصن». وفجأة دخلت عالم الماضي بخيالها. رأت الحصن كما يجب ان يكون في العصور الوسطى: سلطة وقوة، في المدخل، الفرسان تلبس دروعها التي تلمع تحت اشعة الشمس. الاعلام المثلثة الملونة ترفرف بفعل النسيم. الكل في هرج ومرج سوى فارس واحد. كان مبتعداً عن الآخرين مع حصانه الأسود. انيق في ثوبه الرمادي وبنطلونه الأسود. يضع في خوذته الرياش المميزة. كان ينظر الى سيدة جميلة تطل من نافذة في الحصن.

رف جفنها ورجعت الى الواقع. تذكرت حلم اول ليلة لها في دانكريغان. الحلم الذي تكرر اكثر من مرة... وكان البطل هو نفسه فارس دانكريغان، ليماند. تذكرت انها لم تزر قبو الحصن ولا السجن. عليها ان تزورهما الآن والا لن تراهما ابداً.

نزلت سريعاً الى المطبخ. وجدت جوني هناك. سألته:

«اين اجد مفتاح الحصن؟».

«معلق في مسمار على المدخل المسقوف في الرواق لماذا؟».

شرحت ساندي له بسرعة. قالت له ان مرتا قد حضرت واخذت ديرميد معها الى بروكفيلد. واسرعت راكضة، بينما كان جوني يوصيها ان تنتبه لنفسها وهي في داخل الحصن.

كانت تسير بعكس اتجاه الريح وهي بطريقها الى الحصن. بدأت اوراق الشجر تصفر مؤذنة بموسم الخريف. اوراق الكرز قد جمعتها الرياح قرب الحصن. فتحت باب الحصن ودخلت. كانت السيارات الثلاث ما تزال مكانها في الساحة. في زاوية الغرفة وجدت الباب الأرضي الى القبو قد فتح كأن احداً قد نزل الى اسفل، منذ قليل.

نزلت السلالم الخشبية بتأن. سرت لأن الكهرباء قد اضيئت قبل وصولها. الشخص الذي دخل قبلها ترك لها النور الكهربائي لينير عتمة القبو. الغرفة تحت الأرض باردة ورطبة ولكنها نظيفة وتشبه المستودع. مساطب خشبية متينة رصت فوقها علب زيت المكنات والمحركات. انها مستودع ولا شك.

يقبع السجن في زاوية القبو. غرفة صغيرة مبنية من حجارة ولها باب من القضبان الحديدية. مدت رأسها بين قضيبين من الحديد في باب السجن وارتعشت من فكرة سجنها داخل هذه الغرفة الصغيرة خلف القضبان وسط العتمة.

يوجد باب خشبي قرب غرفة السجن. فتحت مزلاجه فاذا بها امام نفق طويل. انه نفق المهربين. فرحت لأنها وجدته بسهولة. دخلته مستعينة بالضوء المتسرب من القبو. رأت امامها باباً اخر صنع حديثاً، في اخر النفق. يفتح من الداخل وله قفل ايضاً. صنع ليمنع دخول عابري السبيل من الشاطىء الى الحصن عن طريق النفق.

فتحت الباب الى الداخل وخرجت لتجد نفسها امام تلال من الرمال جرفتها بغضب، الرياح العاتية وامواج البحر الهائج، الى اليابسة. كانت الرياح الشديدة تعبث بشعرها وتلفه حول وجهها. مشت الى الشاطىء امامها. هل من الممكن ان تمشي من هنا الى الخارج: الى مصب النهر او الى الخليج الصغير حيث تلعب مع الأولاد يومياً. كلا الطريقين غير سالك. تذكرت ليماند حين قال لها ان الرمال هنا مهلكة، متحركة.

من الأفضل لها ان تعود الى الحصن عبر النفق. فجأة سمعت صوت الباب يغلق دونها. اغلقته الرياح المعاكسة او التيار الهوائي. تفقدت المفتاح في جيبها. لم تجده. تذكرت انها ولا بد قد تركته في الباب الخارجي للحصن، حين دخلت.

هذه المرة، لقد سجنت خارج الحصن. سجنها الآن خطر على حياتها. المد سيعلو بعد قليل ويغمرها. ربما تستطيع ان تتسلق الصخور الحادة التي كان الحصن مبنياً فوقها. خطر انزلاقها ووقوعها كبير.

بدأت تتفحص الصخور علها تجد بعض المواضيع لتثبيت يديها ورجليها ان فكرت بالتسلق. سمعت صوت الباب يفتح. وظهر امامها شخص بلباس رمادي وقميص اسود، انه ليماند.

وقف ينظر اليها بعينين باردتين خاليتين من اي تعبير. وجهه جامد كالتمثال المنحوت. مد يده الى جيبه واخرج المفتاح:

«اعتقد انها المرة السابعة التي انقذك فيها. خطوبتنا هي السادسة. في المرة التالية حين تدخلين من باب الحصن لا تنسي المفتاح في الباب».

اخفت رغبة ملحة في ان تركض اليه والى ذراعيه لتشكره على انقاذها... ولكنها مشت من قربه ودخلت الى النفق.

«لن يكون هناك مرة ثانية. سأغادر دانكريغان اليوم. من اجل ذلك حضرت لأرى السجن والقبو. مرتا وبيل عادا من شهر العسل واخذا ديرميد معهما الى بروكفيلد. لا داع لبقائي هنا. سأغادر مع ديريك».

اغلق الباب الخارجي للنفق. بدأ سيرهما في داخله. النفق رطب وبصيص نور يصله من القبو. كانا متقاربين لدرجة انها كانت تسمع انفاسه وتحس دفء جسمه. اسرعت مشيتها. كيف يمكنها ان تكون قريبة جداً منه ولا تستطيع ان تلمسه. هذا اكثر ما تستطيع احتماله. وها قد اقتربت ساعة الفراق بينهما.

«هل ترغبين في الرحيل؟».

«علي تدبير امري من اجل الجامعة. لا اعرف بعد اذا كان قد قبل طلبي لاتابع دراستي».

«اذن، ما زال علمك اهم من اي شيء اخر تفعلينه؟» قال «ظننت انه ربما تبقين مع فريق العمل الذي سيقوم بالتنقيب في الجهة الثانية من التلة».

نظرت اليه. كان واقفاً قرب الباب يتابعها بعينيه.

«احب ذلك ولكن...»، قالت تغالب دموعها حتى لا يظن انها مثل مرتا لا تحصل على اي شيء بدون سلاح الدموع.

«ولكن ماذا؟».

«اسهل لنا ان نفسخ خطوبتنا اذا رحلت». قالت وعينيها تنظر الى الأرض لتخفي دموعها المتساقطة غصباً عنها.
«اعتقد ذلك. هل تريدين فسخ الخطوبة؟».
«أليس هذا ما اتفقنا عليه؟».
«اعرف». مشى ناحيتها فجأة. قفزت الى الوراء حيث اصبح الباب الخشبي خلفها.
«لنفترض انني لا اريدك ان ترحلي وانني افكر جدياً بأن اسجنك هنا في الحصن لئلا تستطيعي الرحيل». قال بحنان وقد اقترب منها اكثر وشاهدت بريق عينيه كالصاروخ، «سأطعمك، سأجلب لك اللحم والشراب، وبعد الطعام والشراب اعانقك. وقبل ان ينتهي الليل تعترفين بأنك تحبين ذلك».
«ليماند» كان قد وضع يديه على الباب وحاصرها بينهما «انت تحيك خرافة جميلة كلها احلام ساحرة. ولكنني لا استطيع البقاء».
«لم اسألك اذا كنت تستطيعين البقاء. قلت لك اذا كنت ترغبين البقاء. يوجد فرق بين الحالتين. انني ارحب بك اذا رغبت ليس فقط لنهاية الصيف بل قدر ما تشائين».
«وهل هناك من شروط؟» سألته وهي تكاد لا تصدق ما تسمع.
«شرط واحد فقط. ان تتزوجيني. هل يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار؟ هل يمكنك الهبوط من برجك العالي – العلمي وتتنازلي وتتزوجيني، انا ملاك، مفلس، نظرته الى الحياة نظرة مادية صرف، اسم عائلته ملطخ بالسواد. اذا وافقت سأعمل قصارى جهدي ان لا اعطيك فرصة للندم على قرارك».
قربه بدأ يعذبها. كانت تتمنى ان تعانقه بكل ذرة من كيانها، تتمنى ان يلفها بعواطفه. رغبتها تجعل استعمال عقلها امراً مستحيلاً.
«وهل يجب عليّ اتخاذ قراري الآن؟».
«نعم. او اسجنك». قالها بجدية وبدون ان يضحك او حتى يبتسم.
«وكيف لي ان اقرر وانا لا اعرف شعورك نحوي؟ كنت في الاسبوع الماضي بعيداً عني. ظننت ان رحيلي يسرك، وانني ان فسخت الخطوبة ستعود الى هيلين وتصل ما انقطع بينك وبينها من حبل الود. لقد كانت

تزورك يوم الاحد. ظننت انك اخبرتها بحقيقة خطوبتنا المزيفة».
«ما تزال حساباتك ضعيفة. لا احد يعرف حقيقة خطوبتنا الزائفة ولن يعرف احد اذا استطعت. لقد حضرت هيلين لتعتذر عن تصرفاتها الحمقاء. حضرت تودعني قبل رحيلها الى غلاسكو. لو كنت موجودة لاعتذرت لك ايضاً. كل ما يربطني بها هو حب من طرف واحد. جانبها. كانت تعتقد اننا كنا نرتبط بعلاقة محبة. كل فترة بقائي هنا في دانكريغان لم تكن لتفرق بيني وبين كروفورد». كان صوته يضحك وهو يتذكر حيله مع اخيه في الماضي.
«اذن. لماذا اهملتني الاسبوع الماضي؟».
«لانني ظننت انك لا ترغبين بي بعدما وصل صديقك، باحث التاريخ. انا لا احب ان اضايقك او اضايق غيرك. لدي كبرياء آل كالدويل ولا يسرني ان اكون عائقاً مربكاً لك. كان علي ان اترك لك الخيار بيننا، والآن بعد ان رحل صديقك وبقيت انت هنا...».
«ذهب ديريك؟ متى؟».
«كان في طريقه خارج السور حين عدت من الخارج يصحب معه جوني الى كيركتون. اخبرني جوني انك في الحصن. اقترحت ان افتش عنك لتوديعه. قال انه لا يستطيع الانتظار. لديه موعد هام وخاص في كاليزل. اخبرني انه لا يعتقد انك ستحضرين الى دولشستر في تشرين الأول بدء السنة الجامعية. قال انه يتفهم اسبابك. شعرت عندئذ ان املي اصبح كبيراً في الفوز بك وعلي ان اتمسك بك بقوة. والآن ماذا تفعل يا ساحرتي الجميلة؟ السجن؟ او التسليم لقوة تشعر كلانا انها اقوى منا».
«نسلم» قالت وهي تركض لحضنه ولذراعيه.
«هل من شروط؟».
«هناك شرط واحد!».
«ما هو».
«حين اقول لك انني سأتزوجك لانني احبك عليك ان لا تفكر ان الكلمة تؤمن مصالح خاصة لي وامتيازات».
«اعدك بذلك. وافضل الآن ان نترك جو النفق الرطب ونذهب الى المنزل قبل ان اتكلم معك في الحب».

«هل هذا صحيح؟».

«انت صعبة الاقناع ولكني سأجرب، انت اول زهرة التقطها وارغب ان تبقى معي. انت اول امرأة طلبت اليها ان تتزوجني. لا اعرف طريقه اعبر لك فيها عن عميق شعوري نحوك. لقد بقيت في منزلي فترة زمنية وتعرفين عني الكثير. هل اطلب منك ان تتزوجيني لو لم تكن عواطفي نحوك اقوى من عواطفي لأي امرأة اخرى عرفتها».

«انني اصدقك ولكن لا اصدق ان ذلك قد حصل لي. لماذا انا؟».

«لانك اول امرأة تهتم بعملي وبمنزلي. لا تهمك الألقاب ولا المراكز ولا المال. انك بحاجة دائمة لمن يقنعك بأنك لست شخصاً لا جنس معين له. انك بحاجة دائمة لمن ينقذك. اسباب واسباب لكن من يهمه الأسباب!».

عانقها بحنان ثم اكمل:

«فقط عالمة التاريخ تهمها الأسباب والنتائج. كل ما اريده بقاءك في دانكريغان معي. واذا لم تقبلي علي ان اسجنك حتى لا تهربي، هذا ما يمكنني تقديمه لك وهو ليس بالشيء الكثير اذا ما قورن مع الابحاث والدرجات العلمية ومهنة التنقيب عن الاثار... اقدم لك كل ما عندي....».

وضعت يدها على فمه كي يكف عن الكلام. قالت بصوت مرتفع.

«اوه. ليماند. انه اكثر مما احتاج. انا ارغب فيما ترغب انت. وكان هذا هو الحال منذ فترة».

«لنخرج من النفق. في المنزل ستجدين انني لا امانع في ان تقولي لي انك تحبينني وتبرهنين لي عن حبك».

كان العناق سريعاً ولكن الوعود كثيرة. صعدت ساندي السلالم من القبو الى سطح الأرض. كان قلبها يغني طرباً بل فرحاً لأن حلمها قد تحقق. ستبقى مع الفارس الأسود في دانكريغان الى الأبد.